

الأب فاضل سيداروس اليسوعي

مدخل إلى رسائل القديس بولس





سلسلة
«دراسات في الكتاب المقدّس»
المدير: المطران أنطوان أودو اليسوعيّ

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للّاتين
بيروت، ١٩/ حزيران/ ١٩٨٩

ISBN 2-7214-5104-9

دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ٠٩٤٦ - ١١
رياض الصلح، بيروت ٢٠٦٠ ١١٠٧
لبنان
http://www.darelmachreq.com

التوزيع: المكتبة الشرقيّة
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: ٤٩٢١١٢ - ٥/ ٤/ ٤٨٥٧٩٣ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ (٠١)
Email: libor@cyberia.net.lb

جمعيّات الكتاب المقدّس في المشرق
ص.ب. ٧٤٧ - ١١، بيروت، لبنان

تصميم الغلاف: جان قرطباوي

التقديم

في هذه المحاضرات نتوخى التعرّف إلى عالم بولس وفكره اللاهوتي من خلال رسائله. وليست هذه المحاضرات بحثاً أو تحليلاً للرسائل، بقدر ما هي مدخل إليها، مدخل يوضّح أهم معالمها. لذلك لن ندرس كل رسالة على حدة، وإن كانت هذه الطريقة مفيدة ومثمرة، ولكن هناك باللغة العربية دراسات وأبحاثاً كثيرة عن كل رسالة، فضلاً عن طبعة دار المشرق اللبنانية للعهد الجديد (وبالأخص طبعة ١٩٨٨ الثالثة عشرة) التي تُسبق كل رسالة بتقديم مقتضب، ولكنه وافٍ وواضح، يساعد على قراءة دقيقة، بالاضافة إلى العناوين والشروح التي توضّح المعنى.

وأما الأسلوب الذي سنقتفيه، فهو تقديم فكر بولس اللاهوتي في ثلاثة محاور رئيسية: المسيح — الكنيسة — المسيحي. وميزة هذه الطريقة أنّه في عدد محدود من المحاضرات يمكن تكوين فكرة واضحة عن لاهوت بولس. فالمحاور الثلاثة هذه تشمل مجمل الفكر البولسي، بغضّ النظر عن أهميتها الايمانية. فكل شيء يتمحور لدى بولس حول شخص المسيح. والكنيسة هي جسده الحي وهو رأسها. وأمّا المسيحي فعليه أن يحيا من المسيح داخل هذا الجسد.

وفي تقديم هذه المواضيع الثلاثة، سنحلّل بعض النصوص المهمة لنتعوّد على تحليل نصّ كتابي تحليلاً صائباً داخلاً في فكر لاهوتي. فلن يقتصر تحليلنا على شرح هذه الآية أو تلك،

ولا على فهمها فهماً حرفياً ، ولكننا سنضع النصوص في اطارها ، بغية استخلاص فكر لاهوتي متناسق. فنظراً إلى أن هذه المحاضرات هي مدخل ، فستتّسم ضرورة بالاختصار والاقتضاب ، بل بالنظرة الشاملة لتكوين فكرة عامة عن بولس ، في سبيل قراءته ودراسته شخصياً فيما بعد بطريقة أوفى. فما هدف هذه المحاضرات الا الحثّ على قراءة كاملة وكلية ، وعلى دراستها دراسة دقيقة. فبولس عملاق الفكر اللاهوتي المسيحي قد سبق يوحنا في ذلك. فهما يمثّلان أول اللاهوتيّين وآخرهم في العهد الجديد.

وقبل الغور في فكر بولس ، نقدّم له بمقدمتين ، الأولى عن حياته ورسالته وشخصيته ، والثانية عن رسائله وتكوينها وطريقة كتابتها وفنّها الأدبي.

مختصر حياة القديس بولس

	ما بين ٥ و١٥	مولده في طرسوس
	بعد السنة ٣٠	ذهابه الى أورشليم لدرس الشريعة اليهودية
	ما بين ٣٤ و٣٦	اهتداؤه على أبواب دمشق— إقامته في دمشق وبلاد العرب
	٣٧— ٣٩	زيارته للرسل— ذهابه الى طرسوس
	٤٣— ٤٤	تبشيره أهل أنطاكية
+	ربيع ٤٥— ربيع ٤٩	رحلته التبشيرية الأولى
	٤٩	الجدال في أنطاكية ومجمع أورشليم

+	خريف ٤٩ — خريف ٥٢	رحلته التبشيرية الثانية
	شتاء ٥٠ — صيف ٥٢	مكوثه في قورنتس
●	٥١ — ٥٢	١ و ٢ تس
+	ربيع ٥٣ — ربيع ٥٨	رحلته التبشيرية الثالثة
	خريف ٥٤ — ربيع ٥٧	مكوثه في أفسس
●	ربيع ٥٧	١ قور
	صيف ٥٧	زيارته إلى أهل قورنتس — رحلته إلى مقدونية
●	خريف ٥٧	٢ قور
●	شتاء ٥٧ — ٥٨	مكوثه في قورنتس — روم
	الفصح ٥٨	رجوعه ماراً بفيليّي
	العنصرة ٥٨	اعتقاله في أورشليم
	٥٨ — ٦٠	أسره في قيصرية
+	خريف ٦٠ — ربيع ٦١	سفره الى رومة
●	ربيع ٦١ — ربيع ٦٣	أسره في رومة — قول ، ف ، أف ، فل
	٦٣ — ٦٧	تبشيره بعد إخلاء سبيله — ذهابه إلى إسبانيا ، أفسس ، إقريطش ، مقدونية
●	٦٥	١ طيم ، طي — أسره في رومة — ٢ طيم
	٦٧	استشهاده في رومة

ملاحظة : كل هذه التواريخ تقريبية

+ = الرحلات

● = الرسائل

المقدمة الأولى

بولس : حياته — رسالته — شخصيته

ثمة مصدران لدراسة بولس: رسائله من جهة، وأعمال الرسل من جهة أخرى، حيث ينال بولس نصيب الأسد (خاصة ابتداءً من الفصل التاسع). وسنعتمد على كلا المصدرين لتوضيح أهم معالم حياته ورسالته وشخصيته.

أهم فترات حياته

شبابه

ولد بولس في طرسوس حوالى السنة ٥ الميلادية (ما بين ٥ و١٥؟)[١] في الديانة اليهودية. وكان ينتمي إلى الفريسيين المحافظين على تطبيق الشريعة. وهو يفتخر بذلك (فل ٣ / ٥+ وغل ٢ / ١٥ و١ / ١٣— ١٤ وروم ١١ / ١). وقد أمضى طفولته في أورشليم (رسل ٢٦ / ٥) حيث تتلمذ عن يد جملائيل (رسل ٢٢ / ٣).

والراجح أنه كان متزوجاً، شأن جميع رجال عصره— ما عدا رهبان قمران ولم يكن بولس منهم— ولكنه إمَّا ترمّل وإمّا قطع العلاقات الزوجية في سبيل الرسالة (١ قور ٩ / ٥— ٦)، وهذا هو معنى «غير متزوّج» (١ قور ٧ / ٧— ٨).

وفي شبابه اشترك في اضطهاد الكنيسة بحميّة وغيرة باسم الشريعة الفريسيّة، متفوّقاً في ذلك على سائر أترابه (غل ١ / ١٤)، إذ كان فريسياً متمسّكاً بالشريعة الموسوية وبتفاسيرها الفريسيّة، حتى كان بوسعه أن يقول: «الحياة لي هي الشريعة»، مستبقاً كلمته الشهيرة عمدة حياته: «الحياة لي هي المسيح». وكانت ثقافته إذاً العهد القديم وبخاصة الطريقة «الربانية» (أي طريقة «المعلّمين» اليهود) في فهم الكتاب المقدّس

١. راجع جدول تواريخ حياته المرفق.

وتلقينه، كما تأثّر ولا شك برهبان قمران في مثل حديثه عن الجسد/ الروح والبرّ/ النعمة.....

ولكن بولس الطرسوسي مدين أيضاً للثقافة الهلّينية، أي الثقافة اليونانية (أو الاغريقية) المتأثرة بالعهد القديم والتي كانت متداولة آنذاك في فلسطين والبلاد المجاورة. فمنذ نشأته بطرسوس، أتقن اللغة اليونانية وتعرّف إلى أدبائها (١ قور ١٥ / ٣٣) وعاداتها، ومنها ألعابها (١ قور ٩ / ٢٤— ٢٧).

ويظهر تأثُّره بالثقافة الهلّينية في أسلوب رسائله ولغتها. فعلى سبيل المثال، كثيراً ما يستخدم صيغة التضاد (وهي صيغة يونانية)، مثلاً في قوله: «إمّا بالحياة الأبدية... وإمّا بالغضب والسخط... الذين خطئوا وهم بغير شريعة يهلكون أيضاً بغير شريعة، والذين خطئوا وهم بالشريعة يدانون بالشريعة. فليس الذين يصغون إلى كلام الشريعة... بل العاملون بالشريعة... فهي تارة تشكوهم وتارة تدافع عنهم... قائد للعميان، ونور للذين في الظلام، ومؤدّب للجهّال، ومعلّم للسّذج...» (روم ٢ / ١ — ٢٠ وراجع ٩ / ١٩— ٢٠ و١ قور ٩ مثلاً). ويظهر تأثير الثقافة اليونانية في فكر بولس في حديثه عن الحرية والعقل والضمير والفضيلة... وكلها تعابير اشتهر بها مذهب الرّواقيين (Stoïciens) وكذلك في حديثه عن السر والمعرفة... وقد اشتهر بها تيار الغنوصية (أي العرفان Gnose) الذي كان في بدايته آنذاك (وقد راج رواجه في القرن الثاني الميلادي).

إلّا أن تأثّر بولس بالحضارة والثقافة اليونانية لا يعني أنه ضلّ فيها. بل على نقيض ذلك، فإنّه نصّرها، ان جاز هذا التعبير، وكان ذلك شاغله الشاغل ومدار اهتمامه الدؤوب، متحاشياً هكذا أي مساس بجوهر بشارة الخلاص ووديعة الايمان. فكل التعابير الآنفة الذكر وغيرها كثيراً ما كان يستخدمها ويأخذها من أعدائه ليصوغها صيغة مسيحية (قول ١ / ١٦ و١٩ و٢٧ و٢٨ و٢ / ١+...). هكذا استطاع أن يُخرج المسيحية من بوتقة الشريعة الموسوية والثقافة الفلسطينية (المتمثّلة مثلاً في الانجيل بحسب متى)، ليفتحها على ثقافة أخرى، لأن المسيحية لا تنحصر في ثقافة واحدة ولا فكر واحد. بل تنفتح على كل الثقافات انفتاح الشمولية من جهة. وتندمج في كل ثقافة من جهة أخرى[١].

وخلاصة القول أن بولس كان ذا ثقافتين،

٢. من واجبنا السؤال هل كان لاهوتنا المسيحي الشرقي متأقلماً مع الحضارة الاسلامية العربية، فان صاغ متى بشارة الخلاص بالحضارة اليهودية، وبولس بالحضارة اليونانية، وآباء الكنيسة الشرقية بالحضارة اليونانية الأفلاطونية، والكنيسة الغربية في القرون الوسطى بالحضارة اليونانية الأرسططالية، والكنيسة الغربية المعاصرة بحضارة العالم المعاصر...، فلماذا لا يصوغ المسيحيون الشرقيون المعاصرون بشرى الخلاص ومضمون الايمان بثقافتهم وحضارتهم العربية الاسلامية حيث يعيشون؟ فهنا يجب التمييز بين وديعة الايمان (وهي شاملة لا تتغير) والتعبير عنها في ثقافات مختلفة ومتعدّدة. على مسيحيي الشرق أن يقوموا بما قام به بولس والانجيليون وآباء الكنيسة. كل بحسب بيئته وجمهوره وثقافته وحضارته.

الثقافة اليهودية والثقافة الهلّينية. إلّا أنه تطوّر تدريجياً من اليهودية إلى الهلّينية بسبب رسالته لدى الأمم، ولكن دون أن يفقد كل مكتسبات ديانته اليهودية القديمة، بل نصّر كلا الثقافتين بحسب مقتضى الحال والظروف التي عايشها. وفي سبيل توصيل المسيح إلى الجميع دون استثناء.

اهتداؤه

وحوالى السنة ٣٥، وقع في حياة بولس حدث غيَّر مجرى حياته، إذ ظهر له يسوع المسيح وهو في طريق دمشق ليضطهد كنيسته. وفي رسائله وفي أعمال الرسل عدّة روايات لهذا الحدث يمكن مقارنة بعضها ببعض:

* رسل ٩ /١+ و٢٢ /٣+ و٢٦ /١+.
* غل ١ / ١١+ و١ قور ٩ / ١ و١٥ / ٨ — ١٠ و٢ قور ٣ / ١٤ — ١٨ وفل ٣ / ١٢.

وعلى أثره نعلم أنه تتلمذ لحَنَنْيا واعتمد عن يده (رسل ٩)، أي أنه دخل في الكنيسة وتبنّى تقليدها، رغم دعوته الخاصة، كما سيذكرها مراراً لتبرير رسالته لدى الأمم.

ولقد تعدّدت معاني هذا الحدث بحسب المفسّرين. فلقد أدركوا جميعاً أن حدث الطريق إلى دمشق مفتاح كل لاهوت بولس، غير أنهم اختلفوا في تقييم معانيه. وربما علينا ألّا نختار بين تفسير وتفسير آخر، ولكن أن نبحث فيهما معاً. ومن بينها:

— فهم بولس سرّ صليب يسوع المسيح وقيامته، فاختبر يسوع المسيح المصلوب / الممجّد. وسنتناول ذلك في القسم الأول من محاضراتنا.

— أدرك بولس علاقة المسيح بالكنيسة، إذ قال له الصوت: «أنا يسوع الذي تضطهده» (راجع رسل ٩/ ٥ و٢٢/ ٨ و٢٦/ ١٤). وهذا ما سنتناوله في القسم الثاني.

— أيقن بولس «الحياة الجديدة» التي يمنحها روح المسيح للذي يؤمن. فقد تحوّل بولس من الشريعة إلى المسيح، من التبرير بأعمال الشريعة إلى الايمان بالمسيح، بفضل النعمة. والحياة مع المسيح تستدعي حياة جديدة تحلّ محل الحياة القديمة. وسنتناول هذا في القسم الثالث.

— وعى بولس دعوته الخاصة لتبشير الوثنيين في سبيل اعلان انجيل الخلاص، تاركاً لسائر الرسل الرسالة لدى اليهود.

استطاع بولس بعد اهتدائه أن يقول تدريجياً: «لست أنا أحيا. بل المسيح يحيا فيّ» (٢ قور ٤ / ١٠)— «الحياة لي هي المسيح» (فل ١ / ٢١).

رسالته الخاصة

شعر بولس، منذ بداية اهتدائه واعتماده، بأن المسيح اختاره ليكون رسول الأمم. بدأ رسالته في دمشق (سنة ٣٦، ٣٩)، الا أنه انتقل إلى أنطاكية (سنة ٤٣، ٤٤) حيث توضّحت له دعوته إلى تبشير الوثنيين. وهناك عانى من مشكلة الشريعة الموسوية التي كان يريد أن يفرضها

المسيحيون المتهوّدون على المسيحيين الوثنيين، فكانت هذه القضية تشغله باستمرار وتمّ البتّ في الموضوع في مجمع أورشليم (سنة ٥٠).

اشتهر بولس برحلاته الرسولية التبشيرية الأربع، نقدّم كلا منها باختصار:

* **الرحلة الأولى** (سنة ٤٥— ٤٩): بشّر بولس في آسية وأنشأ كنائس كثيرة في المدن الكبرى (رسل ١٣ / ١٤).

* **الرحلة الثانية** (سنة ٤٩— ٥٠): بشّر بولس في اليونان، ماراً بكنائس آسية، فأسّس كنيسة تسالونيقي وفيلبي وبيرية. ومرّ بأثينة واستقر مدة سنة ونصف في قورنتس حيث كتب رسالتيه إلى كنيسة تسالونيقي. ثم عاد الى الشرق (رسل ١٥ / ٣٦— ١٨ / ٢٢).

* **الرحلة الثالثة** (سنة ٥٣— ٥٨): من أنطاكية انطلق بولس فطاف في بلاد آسية متفقّداً الكنائس التي أنشأها، ومكث في أفسس حيث أسس كنيسة مزدهرة، وكتب فيها الرسالة إلى كنيسة غلاطية والأولى إلى كنيسة قورنتس، ثم رحل إلى مقدونية حيث كتب الرسالة الثانية، فإلى قورنتس حيث كتب إلى كنيسة رومة. ثم عاد إلى الشرق (رسل ١٨ / ٢٣ — ٢٣ / ٣٥).

* **الرحلة الرابعة** (سنة ٦٣— ٦٧): بعد أسره في أورشليم وفي قيصرية مدة سنتين، أبحر إلى رومة حيث مكث فيها سنتين وكتب فيها رسالته إلى كنيسة قولسي وأفسس وفيلبي وإلى تلميذه فيلمون. ثم بدأ رحلته الرابعة في شرق البحر الأبيض المتوسط (بحسب ١ طيم ١ / ٣ وطي ١ / ٥)، أو في أقصى الغرب (بحسب التقليد المسيحي القديم). وكتب آنذاك رسالته الأولى إلى تلميذه طيموتاوس وإلى تلميذه طيطس. ثم أُسِر في رومة حيث كتب الرسالة الثانية إلى طيموتاوس. واستشهد في رومة أيام اضطهاد نيرون للمسيحيين (رسل ٢٧ / ٢٨).

شخصيته

إن شخصية بولس شخصية جذّابة وغنية. سنقتصر على إظهار أهم ملامحها: طبعه، مواهبه، رسالته، روحانيته.

طبعه

بولس رجل متحمّس وغيّور، مندفع وعفوي، متشدّد ومتعصّب، صريح وعنيف... فإذا اضطهد الكنيسة بشدّة وحميّة، فإنه يُظهر الطبع نفسه في لهجته العنيفة مع أبنائه (١ قور ٤ / ٢١ و١١ / ١٦) أو مع بطرس (غل ٤ / ١١) أو مع برنابا، وقد اضطر أن يفارقه في رحلته الرسولية (رسل ١٥ / ٣٩). وهذا الطبع جلب له أعداء كثيرين من يهود ووثنيين، بل ومسيحيين من أصل يهودي، في محاربته للشريعة الموسوية (رسل ١٣ / ٤٥ و٥٠ و١٤ / ٢ و١٩ و١٧ / ٥ و١٣ و١٨ / ٦ و١٩ / ٩ و٢١ / ٢٧ وغل ١ / ٧ و٢ / ٤ و٥ / ١٢ و٦ / ١٢ و١ تس ٢ / ١٥ وفل ٣ / ٢).

وفي معاملته لأبنائه في الايمان، يبدو أنه يكنّ

لهم مشاعر عميقة : فأحياناً ما تظهر ثقته فيهم (فل ١ / ٧+ و٤ / ١٠ — ٢٠)، أو حنانه عليهم (رسل ٢٠ / ١٧ — ٣٨)، وأحياناً أخرى استغرابه لهم (غل ١ / ٦ و٣ / ١ — ٣)، أو ألمه منهم (٢ قور ١٢ / ١١ — ١٣ / ١٠)، وفي بعض الأحيان يصبح متهكّماً (١ قور ٤ / ٨ و٢ قور ١١ / ٧ و١٢ / ١٣)، أو عنيف اللهجة (غل ٣ / ١ — ٣ و٤ / ١١ و١ قور ٣ / ١ — ٣ و٥ / ١ — ٢ و٦ / ٥ و١١ / ١٧ — ٢٢ و٢ قور ١١ / ٣+)، ولكنه يتصرف هكذا في سبيل مصلحتهم وخيرهم (٢ قور ٧ / ٨ — ١٣)، فيعود إلى اظهار حنانه (٢ قور ١١ / ١ — ٢ و١٢ / ١٤+). لأنه أبوهم الوحيد في الايمان (١ قور ٤ / ١٤+ و٢ قور ٦ / ١٣ و١ تس ٢ / ١١ وف ١٠). بل وأمّهم (١ تس ٢ / ٧ وغل ٤ / ١٩).

مواهبه

ليس لدى بولس مخيّلة خصبة وقوية، فصوره وتشابيهه عادية، وغير كثيرة في رسائله، فأهمها السباق (١ قور ٩ / ٢٤ — ٢٧ وفل ٣ / ١٢ — ١٤ و٢ طيم ٤ / ٧+). والبحر (أف ٤ / ١٤). والزراعة (١ قور ٣ / ٦ — ٨). والبناء (١ قور ٣ / ١٠ — ١٧ وروم ١٥ / ٢٠ وأف ٢ / ٢٠ — ٢٢). والزراعة والبناء معاً (١ قور ٣ / ٩ وقول ٢ / ٧. ١٩ وأف ٣ / ١٧ و٤ / ١٦).

فإن كانت مخيلته غير غنية. إلّا أن مواهبه أكثر ذهنية، فإنه يتميّز بالذكاء. والنظرة الثاقبة والمنطق، فضلاً عن أن لديه قدرة عظيمة على التأقلم مع الجمهور الذي يتعامل معه أو يخاطبه، طبقاً لطريقة «الربّانيين» (غل ٣ / ١٦ و٤ / ٢١ — ٣١).

رسالته

شعر بولس برسالته الخاصة، فالله قد دعاه منذ البطن (غل ١ / ١٦+) وأرسله إلى الوثنيين (غل ٢ / ٧ — ٩) فلم يمنعه ذلك من احترام الرسل الآخرين (غل ١ / ١١ — ١٨ و٢ / ٢ و١١ — ١٤ و١ قور ٩ / ١ و١٥ / ٨ — ١١ ورسل ٢١ / ١٨ — ٢١)، ومن مساعدة أورشليم في وقت الشدة (غل ٢ / ١٠ و٢ قور ٨ / ١٤ و٩ / ١٢ — ١٣ وروم ٥ / ٢٦+)، ومن التبشير بالايمان المشترك (غل ١ / ٦ — ٩ و٢ / ٢ وقول ١ / ٥ — ٧ و١ قور ١١ و١٥)، وذلك رغم انجيله الخاص (روم ٢ / ١٦ و١٦ / ٢٥).

وأمّا خدمته، فإنه يهتم بجميع الكنائس كل الاهتمام، بروح المسؤولية والالتزام (٢ قور ١١ / ٢٨ وقول ١ / ٢٤). فرسالته جزء لا يتجزأ من شخصيته، وهي خير تعبير عن محبته لله وعن خدمته للآخرين. فاختباره لمحبة الله جعله يشعر بضرورة التبشير للجميع (١ قور ٩ / ١٦).

روحانيته

ان مركز حياة بولس وشخصيته بعد اهتدائه هو شخص يسوع المسيح الذي «استولى» عليه (٢ قور ٤ / ١٠ وفل ٣ / ١٠+). ومن حبه له. تمثّل به ومن أجله ولأجل الرسالة. إذ وهب له، لا أن يؤمن به فحسب. بل أن يتألم أيضاً معه

ومثله في سبيل خلاص الكنيسة جسده، متمّماً في جسده ما ينقص من آلام المسيح (فل ١ / ٢٩ وقول ١ / ٢٤ و٢ قور ٤ / ٨— ١٨ ورسل ٩ / ١٦)، ولا شيء يفصله عن المسيح (روم ٨ / ٣٥+).

وبولس يدع النعمة تعمل فيه (١ قور ١٥ / ١٠)، وكل ما يقوم به يأتي من الله (١ قور ١٥ / ١٠ و٢ قور ٤ / ٧ وفل ٤ / ١٣ وقول ١ / ٢٩ وأف ٣ / ٧).

ونعمة الله تكفيه لأن قدرة الله تكمل في ضعفه (٢ قور ١٢ / ٩).

وفي كل أعماله وفي جميع مواقف رسالته، يظهر متجرّداً عن ذاته كل التجرد (١ قور ٤ / ٩— ١٣ و٢ قور ٤ / ٨+ و٦ / ٤— ١٠ و١١ / ٢٣— ٢٧) ولا يخشى أن يضع نفسه قدوة للآخرين (٢ تس ٣ / ٢٧)، بتواضع كبير، إذ يعتبر نفسه الأخير والسقط (١ قور ١٥ / ٩ وأف ٣ / ٨).

هذا هو بولس كما يظهر في رسائله وفي سفر أعمال الرسل. بوسعنا الآن أن نلقي نظرة إلى رسائله عامة لنستشف نوعيّتها.

المقدمة الثانية

رسائل بولس

نودّ أن نقدّم تقديماً عابراً لرسائل بولس، علّها تساعدنا في بحثنا عن فكره اللاهوتي.

تقسيم الرسائل

كتب بولس رسائله ما بين السنة ٥١ و٦٦، أي مدة ١٥ عاماً. ويقسّمها المفسّرون إلى ثلاث فئات:

١ — أثناء نشاطه الرسولي: ١ و٢ تس و١ و٢ قور وغل وروم.

٢ — أثناء أسره: فل وقول وأف.

٣ — الرعوية: ١ طيم وطي و٢ طيم وف.

ويتّفق جميع المفسّرين المعاصرين — ما عدا الكنائس الشرقية — على أن الرسالة إلى العبرانيين ليست لبولس، بل تنتمي إلى بيئته، فربّما يكون أحد تلاميذه قد كتبها.

الفن الأدبي «رسالة»

في الآداب الشرقية فنّ خاصّ معروف بفنّ «الرسالة». ونجده، على السواء، في العهد القديم وفي الآداب المصرية أو البابلية أو الهلّينية. ولقد اكتُشف مخطوط على بردي من القرن الثاني وهو عبارة عن رسالة أرسلها شاب مصري دخل الجيش الروماني، إلى والده بمصر. ومن المعروف أن الرسالة تتبع التقسيم الآتي:

١ — عنوان: من المُرسل إلى المرسَل إليه، مع تحية. وكثيراً ما ترد فيه كلمة «سلام» (باليونانية: Khairein راجع رسل ٢٣ / ٢٦) وفيه أيضاً صلاة للآلهة وشكر لهم.

٢ — موضوع الرسالة.

٣ — التحية في الآخر، أو أمنية المرسِل للمرسَل إليه. وغالباً ما كان يكتبها المرسل بخط يده

(في حين أن الرسالة كان يمليها على كاتب)، تأكيداً على ما كُتب (راجع مثلاً غل ٦ / ١١). وأمّا بولس، فقد استخدم هذا الفن المعروف والتقسيم المألوف وصبغه صبغة مسيحيّة:

١ — أما في القسم الأول، فإنه يوجّه صلاته إلى الله، شاكرا وحامداً إيَّاه على إيمان المؤمنين: «عليكم النعمة والسلام» (١ تس و٢ تس) — «أحمد الله إليكم كلّما ذكرتكم... على...» (فل). وكثيراً ما كان يستخدم كلمة «السلام» (Khairein) بدلَ من لفظة «شالوم» العبرية. ويُستثنى من ذلك رسالتاه إلى رومة وأفسس.

٢ — وأما في القسم الثاني، فيقسمه بولس إلى قسم عقائدي وقسم ارشادي. وكان العقائدي يبحث في نقطة مهمة من الايمان أو الخلاص أو العقيدة التي لم يفهمها المؤمنون فيشرحها لهم. وكان الارشادي يبحث في التطبيق العملي للعقيدة على حياة المسيحيين.

٣ — وأما في القسم الثالث، فيختم الرسالة ببركة مسيحية ليتورجية (١ و٢ تس وغل و٢ قور)، كانت تُستخدم في اجتماعات المسيحيين، في كسر الخبز مثلاً.

مضمون الرسائل

كان بولس يوجّه رسائله إلى الجماعات التي كانت تجتمع لكسر الخبز. وكان يُقرأ فيها الكتاب المقدس (العهد القديم)، فكانت تُتلى الرسالة على الحاضرين.

وجميع رسائله عبارة عن ردّ منه على مواقف أو تساؤلات أو أسئلة أو مشاكل الكنائس أو المؤمنين. فليست رسائله دروساً عقائدية أو لاهوتية، أو نظريات، أو روحانيات محلّقة لا مساس لها بحياة المؤمنين، بل هي بالعكس تنطلق من الواقع الكنسي والحياتي للمؤمنين.

ومما ساعد بولس في ردّه، اختباره الشخصي للمسيح، ومعرفته لسر الله الذي كشف له سر المسيح والمعنى العميق لموته وقيامته. فكان بولس يشارك مؤمني هذه الكنيسة أو تلك من منطلقهم الواقعي من جهة واختباره الشخصي من جهة أخرى، مُظهراً أثر الايمان في الحياة اليومية والتصرفات الشخصية والمعاملات البيتية... وكانت في ذلك نظرته نظرة ثاقبة، بحيث انه كان يستغل كل حادث أو سؤال — مهما كان طفيفاً — لاظهار الايمان المسيحي وتطبيقه على الحياة العملية. ومن هنا تأتي وحدة فكره اللاهوتي وتجانسه: المسيح، الخلاص، الكنيسة، نهاية الأزمنة...

وكل رسالة من رسائل بولس لا تتضمن العقيدة كاملة ومنظّمة ومنهجية، ما عدا روم وأف. ولكن كل رسالة هي متجانسة مع مجمل فكره ورسالته والعقيدة المسيحية. ولقد تطوّر فكره اللاهوتي تدريجياً، فان رسالته إلى كنيسة رومة، على سبيل المثال، تُعمّق مضمون رسالته إلى كنيسة غلاطية، وكذلك رسالته إلى كنيسة أفسس قمة ما كتبه.

وعبرة طريقة بولس هذه هي أن اللاهوت والتربية المسيحية والوعظ... يجب أن تنطلق، لا

من نظريات أو روحيات، بل من الواقع، فيُلقي عليه ضوء الانجيل. فالروحانية المسيحية روحانية متأصّلة في واقع الحياة، ينيره نور المسيح ويرشده الروح القدس. ثم ان الأخلاقيات التي يتحدث عنها بولس غير مبنية على فلسفات، بل على الالهيات، على الايمان بالله، فالله هو الذي يؤسّس التصرّفات الخلقية والمعاملات البشرية. فكل ذلك واضح لدى بولس، وفيه عظة لنا.

والجدير بالذكر أن رسائله تكمّل تعليمه الشفهي في الكنائس التي مرّ بها، وأن ارتباطه بمؤمنيها كان وثيقاً وطيداً:

«أنتم رسالتنا كُتبت في قلوبنا، يعرفها ويقرأها جميع الناس. نعم قد اتّضح أنكم رسالة المسيح، أنشأناها ولم نكتبها بمداد، بل بروح الله الحي، لا في ألواح من حجر، بل في ألواح من لحم ودم، أي في قلوبكم» (٢ قور ٣ / ٢ — ٣).

وأما أُسلوب بولس فيتميز بجمل قصيرة وطويلة، بتعابير مختلفة، بفنون أدبية متعددة...، وذلك داخل كل رسالة أو من رسالة إلى أخرى، مما جعل المفسّرين يشكّون في صحة بعض الرسائل. ولكن الأمر أن بولس غنيّ الأساليب، ويُذكر أنه نادر من الناحية الأدبية أن يجمع كاتب واحد بين أساليب متنوّعة بهذه الطريقة.

تكوين الرسائل

إذا تساءلنا كيف كان بولس يكتب رسائله، أو كيف تكوّنت رسائله، اضطررنا أن نسلّم بأنه كثيراً ما كان يستخدم روايات شفهية: مقاطع وتقاليد متوارثة كانت تتناقلها الجماعات المسيحية، فكان يدمجها في رسائله تأييداً لكلامه أو برهاناً عليه. ونذكر على سبيل المثال:

* اعترافات ايمانية: في مثل ١ قور ١٥ / ٣ — ٥.
* الاعلان الأول: ١ تس ١ / ١٠ وغل ١ / ٤.
* كسر الخبز: ١ قور ١١ / ٢٣.
* عبارات ليتورجية: ١ قور ٨ / ٦ و١١ / ٢٤ — ٢٥ و١٦ / ٢٢.
* أناشيد ليتورجية: ١ قور ١٣ وأف ١ / ٣ — ١٤ وفل ٢ / ٦ — ١١ وقول ١ / ١٥ — ٢٠.
* مدراشيم مسيحية: أي تعاليم، كما درجت العادة عند اليهود وطُبّقت على المسيحية: غل ٤ / ٢١ — ٣١ و١ قور ١٠ / ١ — ١١ و٢ قور ٣ / ٤ — ١٨.
* نصائح في الآداب البيتية: قول ٣ / ١٨ — ٤١.
* لوائح للفضائل والرذائل، مع ارشادات: غل ٥ / ١٩ — ٢٣.

فكان بولس ينسِّق هذه المقاطع التي كانت تتناقلها الكنائس. كنائسه خاصةً، ويجمعها في رسائله بحسب احتياجه إليها. وكان الكاتب الذي يملي عليه بولس يتصرف تارة فيها (روم ١٦ / ٢٢) وتارة لا يتصرف فيها (١ قور ١٦ / ٢١ وغل ٦ / ١١ وف ١٩ وقول ٤ / ١٨ و٢ تس ٣ / ١٧).

والجدير بالذكر أن الكنائس البولسية كانت تتبادل رسائله (قول ٤ / ١٦). ومن المعروف أن

بعض رسائله قد ضاعت (١ قور ٥ / ٩ و٢ قور ٢ / ٣— ٤ وقول ٤ / ١٦). وفي أمر الرسالتين إلى كنيسة قورنتس. فمن الراجح أنها بالفعل أربع رسائل دُمجت في رسالتين. ويفترض بعض المفسّرين أن هذا هو شأن الرسالة إلى فيلبي ورومة ١٦.

وفي نهاية القرن الأول (ما بين السنة ٩٠ و١٠٠)، ظهرت مجموعة قانونية لرسائل بولس، وقد يشير إليها ١ بط ٣ / ١٥— ١٦ واغناطيوس الأنطاكي في رسالته إلى أهل أفسس (١٢ / ٢).

وأما ترتيب الرسائل في كتاب العهد الجديد، فهو بحسب طول الرسائل، فأطول رسالة— وهي أولها في الترتيب لا في التاريخ— هي الرسالة إلى أهل رومة. وأصغرها الرسالة إلى قولسي. والرسائل الموجّهة إلى الكنائس تسبق في الترتيب الرسائل الموجّهة إلى الأشخاص (الرعوية). وهذا هو ترتيب الترجمة اللاتينية للعهد الجديد (Vulgate).

القسم الأول

المسيح في رسائل بولس

علاقة بولس بالمسيح

أول سؤال يتبادر إلى ذهن الباحث هو: هل تعرّف بولس إلى يسوع، علماً بأن الفرق في العمر بينهما هو ما بين عشر سنوات وعشرين فقط؟

الرد صريح، فإن بولس لم يعرف يسوع كما عرفه سائر الرسل، ولم يعايشه مثلهم. يفخر بولس بأنه لم يعرفه «معرفة بشرية»، وينتقد الذين يفخرون بأنهم عرفوا «المسيح معرفة بشرية». في نظره، «لسنا نعرفه الآن هذه المعرفة»، بل معرفة الايمان بيسوع المسيح المائت / القائم (٢ قور ٥ / ١٦ — ١٧)، ذاك الذي ظهر له على طريق دمشق واستولى عليه حينذاك فغيّر مجرى حياته. ويسوع المسيح هذا محور لاهوت بولس، بل محور حياته كلها وخدمته الرسولية.

لكن بولس كان على صلة وثيقة بالجماعة الأولى التي عاصرت يسوع الناصري، وان كانت رسالته في بيئة غير بيئتهم اليهودية. وهناك بعض الدلائل على ذلك:

* فإنه يورد في رسائله بعض التفاصيل الخاصة بيسوع الناصري، فيسرد أنه «مولود من امرأة» (غل ٤ / ٤)، وأنه «ابن داود» (روم ١ / ٣)، كما يذكر «الليلة التي أُسلم فيها» (١ قور ١١ / ٢٣) فصُلب ومات ودُفن وقام تراءى لتلاميذه الاثني عشر (١ قور ٢ / ٢ و٨ و١٥ / ٣ و٤ وغل ٢ / ٢٠ و٣ / ١ وفل ٢ / ٥ و١ قور ١٥ / ٣— ٨)...

* بل انه يورد بعض الكلمات التي تفوّه بها يسوع الناصري: فيما يختص بالزواج مثلاً («لست أنا الموصّي، بل الرب، بألّا تفارق المرأة زوجها»: (١ قور ٧ / ١٠ ومتى ٥ / ٣٢ و١٩ / ٩)، وحق العامل لأجره (١ قور ٩ / ١٤ ومتى ١٠ / ١٠)، والمحبة (١ قور ١٣ وروم ١٣ / ٩— ١٠) ومباركة

المضطهدين واللاعنين (روم ١٢ / ١٤ ومتى ٥ / ٣٨— ٤٨)... فهو يوصي توصيات من قبل الرب يسوع (١ تس ٤ / ٢). ويقول «ما قاله الرب يسوع» (١ تس ٤ / ١٥).

* وذهبت صلته بالجماعات المسيحية الأولى التي عاصرت يسوع إلى أنه استخدم ألفاظاً آرامية كانوا يستخدمونها، مثال «أبّا» (أي «بابا»)، «ماراناتا» (أي تعالَ يا ربّنا). كما أنه استعان بعادات وتقاليد «كنائس الله» فيما يختص بالنساء مثلاً في جماعات الصلاة (١ قور ١١ / ٢— ١٦)، أو عشاء الرب (١ قور ١١ / ١٧+)، فيقول في هذا الصدد، كما في صدد الايمان بيسوع المسيح المائت / القائم: «بلّغت إليكم قبل كل شيء ما تلقّيته» (١ قور ١٥ / ٣). وبوجه عام كان قد تسلّم وديعة الايمان من حنّنيا بعد اهتدائه على طريق دمشق (رسل ٩ / ١٠+).

فمصدر معرفة بولس للمسيح ورسالته والانجيل الذي يبشّر به مزدوج: الكنيسة أو الكنائس من جهة كما ذكرنا، وعلاقته الخاصة بيسوع المسيح ابتداءً من اهتدائه من جهة أخرى. وهذا ما جعله يقول مثلاً: «بلّغت إليكم ما تلقّيته من الرب» (١ قور ١١ / ٢٣). فلم يعلن انجيلاً جديداً ولم يؤسس ديانة جديدة كما ادّعاه بعض المفسّرين، بل ايمانه هو ايمان الكنيسة الأولى، غير أنه طبعه بلاهوت شخصي يعود إلى تعمّقه وتأمّله في الايمان الكنسي، كما يعود إلى دعوته الخاصّة في أن يكون رسول الأمم.

المسيح في فكر بولس اللاهوتي

ان الفكر اللاهوتي البولسي لا ينطلق من نظريات أو عقائد أو روحانيات محلّقة، بل من تساؤلات ومواقف مسيحية ردّ عليها ونظر إليها في ضوء الايمان المسيحي. ولقد أتاحت له هذه التساؤلات والمواقف الفرصة في التعمّق في معرفة المسيح ودوره.

فأول خطوة هي خطوة اختبار بولس للخلاص[1] الذي سنح له أن يعرف من هو المسيح. ولفهم هذا، يمكننا المقارنة بالشعب الاسرائيلي الذي عرف الله ووعى أنه شعبه وأن الله اختاره وتعاهد معه ووعده بالعهود، انطلاقاً من اختبار خلاصي، ألا وهو الخلاص من عبودية أرض مصر والدخول في أرض الميعاد. فحدث إذاً له— وكذلك لبولس ومؤمنيه— أن حدثاً خلاصياً وجودياً واقعياً جعله يتساءل من هو المخلّص[2].

١. لفظة «خلاص» (Soteria) واردة ١٩ مرة في رسائل بولس، ولفظة «برّ» (Dikaiosuné) ٥٧ مرة— لفظة «مخلّص» (Soter) مرتين في رسائل الأسر و١٠ مرات في الرسائل الرعوية (إمّا الله هو المخلّص، وإمّا المسيح)... ولكن بولس يستخدم أكثر التعابير واقعية: الموت، القيامة، مجيء المسيح... وكلمة «خلاص» تختصّ بخلاص الأمم أكثر منها بخلاص الشعب اليهودي، والخلاص يجمع بين الماضي (موت / قيامة المسيح) والحاضر (اشتراك المؤمن في حياة عمل المسيح) والمستقبل (المجيء الثاني للمسيح).

٢. كان بولس الفريّسي يؤمن وينتظر قيامة الأموات.

وهنا خطا بولس خطوته الثانية، فأدرك أن الذي خلّص هو الله الذي تجلّت قوّته الخلاصية في يسوع المسيح. والمسيح هذا حاضر للعالم.

وأما الخطوة الثالثة فهي معرفته لشخص يسوع المسيح نفسه: من هو هذا الذي أظهر قوة الله الخلاصية؟ وهنا ظهرت الألقاب التي عبّر بها عن سر يسوع المسيح وحقيقته: ابن الله — المسيح — الرب....

ينبغي لنا ألّا نفصل بين هذه المراحل الثلاث فصلاً، فإنها متداخلة فيما بينها. فجلّ ما نقول انها تتميّز فيما بينها دون أن تنفصل.

مراحل فكر بولس اللاهوتي

أول قضية تعرّض لها بولس في رسائله هي تساؤل كنيسة تسالونيقي عن المجيء الثاني ليسوع المسيح، وكان يترقّبه المسيحيون الأوّلون ترقّباً شديداً، حتى انهم كانوا يظنّون أن المسيح سيعود وهم في اجتماعهم لكسر الخبز. وكانت هذه القضية فرصة انتهزها بولس ليتعمّق معهم في معنى المجيء الثاني. وعندما تأخّر هذا المجيء، ازداد تعمّق بولس في سر المسيح، ففهم أن قيامة المسيح من بين الأموات أولى خطوات المجيء الثاني، فجاءت رسائله تشرح معنى القيامة. ثم ازداد بولس تعمّقاً في موت المسيح ومعناه لمغفرة الخطايا.

وأخيراً تعمّق في فهم شخص المسيح: هو ابن الله الذي تجسّد.

هذه هي المراحل الأربع التي سنتتبّعها في الفصول القادمة لنتلمّس مراحل فكر بولس اللاهوتي الخاص بالمسيح.

فعندما اضطهد الكنيسة، تنبّه الى خطورة ما يدّعيه المسيحيون من قيامة المسيح وأثرها في قيامة الأموات المرجوّة في العهد القديم والتي حققها يسوع المسيح، الأمر الذي زاد غيرته لاضطهادهم.

الفصل الأول

المجيء الثاني ليسوع المسيح

إن المجيء الثاني للمسيح هو الخطوة الأخيرة من سرّ يسوع المسيح، وأمّا الخطوة الأولى لهذا المجيء فهي قيامته. وكان المسيحيون الأوّلون ينتظرون هذا المجيء الثاني، كما وعدهم يسوع نفسه (يو ١٤ / ١٨ — ١٩)، والملاكان عند صعوده (رسل ١ / ١١)، حتى ان كل الحياة المسيحية كانت مبنية على هذا المجيء المترقّب.

ولما لم يعد المسيح، بدأت التساؤلات، بل الشكوك، حتى اضطر بولس إلى شرح وضع المجيء الثاني لكنيسة تسالونيقي، ونحن نذكر أن الرسالتين إليها هما أولى كتابات العهد الجديد. وجود هاتين الرسالتين متشبّع بهذه القضية.

ولكي نفهم فكر بولس اللاهوتي في هذا المضمار، سنخطو الخطوات الثلاث الآتية:

١) دراسة الألفاظ التي استخدمها بولس للتعبير عن المجيء الثاني.

٢) دراسة بعض النصوص الرئيسية في هذا الصدد.

٣) استخلاص لاهوت المجيء الثاني.

المجيء الثاني: الألفاظ

إن دراسة الألفاظ التي استخدمها بولس للدلالة على المجيء الثاني مهمة، لأن لكل لفظة معنى خاصاً. أخذ بولس تلك الألفاظ إمّا من اليهودية وإمّا من الهلّينية، ونصّرها للتعبير عن عودة المسيح. فالكلمات بحد ذاتها ولاختيار بولس لها معنى نستدل منه مضمون فكر بولس اللاهوتي. ولقد استخدم بولس خمس كلمات للدلالة على المجيء الثاني:

١ — Parousia = الحضور، الدخول.

في العادات السياسية اليونانية، كانت «الباروسيّا» دخول الملوك أو الأباطرة أو القضاة في

مدينتهم دخولاً منتصراً في احتفال فرح شعبي، وبالمناسبة كانت السلطات تسكّ نقوداً تذكارية ذكرى لهذا الدخول. وأمّا في العادات الدينية اليونانية، فـ«الباروسيّا» هي حضور أو ظهور الآلهة.

قد استخدم بولس هذه الكلمة خاصةً في ١ و٢ تس و١ و٢ قور، أي في رسائله الأولى. واستخدم معنى «الحضور» في مثل ٢ قور ١٠ / ١٠ وفل ٢ / ١٢، ومعنى «الدخول» في مثل ١ قور ١٦ / ١٧ و٢ قور ٧ / ٦+.

٢ــ Apocalypsis = الـــــــكشف، الاستعلان.

والكلمة تعود إلى التيار الرؤيوي ،كما نجده في سفر دانيال وسفر الرؤيا. والمعنى أن ما هو مخفي وسرّي يُستعلن ويُكشَف. واستخدمها بولس في مثل ١ قور ١ / ٧ وروم ٨ / ١٨. فالمجيء الثاني هو كشف لسرّ المسيح.

٣ــ Epiphaneia = الظهور.

والكلمة تدل على ظهور الله في العهد القديم لابراهيم وموسى والأنبياء الخ في مجده وعظمته. وقد استخدمها بولس في مثل ٢ تس ٢ / ٨، وفي الرسائل الرعوية حيث يربط المجيء الثاني بالتجسد في مثل ١ طيم ٦ / ١٤ و٢ طيم ٤ / ١ و٨ وطي ٢ / ١٣.

٤ــ Eschatologia = نهاية الأزمنة.

واللفظة خاصة في العهد القديم بأمور نهاية العالم والأزمنة. وأمّا بولس فنصّرها، مدركاً أن نهاية الأزمنة لا تعني نهاية العالم فقط، بل بداية تحقيق ارادة الله في يسوع المسيح من تجسّد وموت وقيامة وصعود وحلول الروح على المؤمنين... فكل هذه الأحداث من علامات نهاية الأزمنة لساعة الحدث الأخير وهو المجيء الثاني.

راجع مثلا ٢ تس ١ / ٧ و١ قور ١ / ٧ ورسل ١ / ١٠ و١١.

٥ــ Hemera = يوم.

وهو «يوم الرب» في العهد القديم، وهو تعبير يرد على لسان الأنبياء للدلالة على غضب الله والدينونة (عا ٥ / ١٨ وأش ٢ / ١٢ــ ٢٢)، فالملكوت الأبدي للأبرار والدينونة للأشرار (زك ١٤ / ١١ــ ١٥ ويؤ ٣ / ١٤ــ ٢١). ويستخدم بولس التعبير، بصيغة إمّا «يوم الرب» (١ تس ٥ / ٢ و٢ تس ٢ /٢)، وإمّا «يوم الرب يسوع» (١ قور ١ /٨)، وإمّا «يوم المسيح» (فل ١ / ٦ و١٠)، للدلالة على المجيء الثاني.

المجيء الثاني: النصوص

هناك ثلاثة نصوص رئيسية تسهب في وصف المجيء الثاني:

١ ــ ١ تس ٤ / ١٣ ــ ١٨

الاطار: الشك في قيامة الأموات ــ التأثير: رؤيوي وهلّيني، وأمّا الرؤيوي ففي صوت الملاك، والبوق، والسحاب، ونزول المسيح من السماء وقيامة الموتى. وأمّا الهلّيني في الموكب والاختطاف السريع، والفرح، والاكليل، والكرامة. ويجب الملاحظة أن كل هذه الأوصاف رمزية أكثر منها مادية، فينبغي عدم فهمها فهماً حرفياً. المعنى:

ظهور المسيح كربّ وضرورة الاعتماد على الايمان المسيحي بموت / قيامة المسيح، للايمان بقيامة الأموات، والاعتماد على كلمة الرب في أن الأموات يسبقون الأحياء (خلافاً لايمان البعض) وفي الالتحاق بالرب ومعه.

٢ — ٢ تس ١ / ٧ — ١٢ و٢ / ١ — ١٢

الاطار: اضطهاد المسيحيين وعراقيل ضد نشر الانجيل، أي ضد المسيح والله. وبالتالي تأثير الفن الرؤيوي الخاص بالحكم والدينونة: اش ٦٦ / ٤ — ١٦ و٢ / ٦ — ٢٢ و١١ / ١ — ٨ (قارن بنبوءة يسوع الخاصّة بخراب أورشليم ونهاية الأزمنة).

وهناك اطار آخر: تأخّر المجيء الثاني. ولذلك يرى بولس أن هذا التأخّر يسمح للانجيل بالانتشار (متى ٢٤ / ١٤ ورو ١١ / ٧)، وهذه قمة انتصار المسيح.

٣ — ١ قور ١٥ / ٢٠ — ٢٨ و٥١ — ٥٧

الاطار: تأثّر القورنتيون ببعض التصوّرات اليونانية، فشكّوا في قيامة الأموات. وأمّا المجيء الثاني فهو الانتصار على الموت. وأمّا قيامة المسيح فهي الفعل الأول للانتصار على جميع القوى، كما هي عماد الايمان بقيامة الأموات وهي الفعل الثاني لانتصار المسيح. وأمّا الفعل الثالث والنهائي فخضوع البشرية للمسيح والمسيح للآب، وهذا يُعلَن للجميع.

ملاحظة: هناك تأثيران يهوديان واضحان في تعبير بولس عن المجيء الثاني (بالاضافة إلى التأثير اليوناني):

(١) «ابن الانسان» وهو تعبير رؤيوي.

(٢) «المسيّا» القومي.

وهما تقليدان موجودان في الكتب الرؤيوية. وفضّل العهد الجديد «ابن الانسان» على «المسيّا» القومي. وما يميّز المسيحية فوجود جماعة مسيانية اسكاتولوجية (أي خاصة بنهاية الأزمنة) تنتظر وتعمل من أجل المجيء الثاني.

المجيء الثاني: اللاهوت

بعد أن حدّدنا أهم معالم المجيء الثاني في تعابيره ونصوصه، نستطيع أن نستخلص بعض عناصر لاهوت المجيء الثاني في فكر بولس. نركّز حديثنا في هذا الصدد على شخص المسيح نفسه، ثم على تأثير مجيئه في المؤمنين.

* **انتصار المسيح**:

بدا لنا، من خلال دراستنا لأهم كلمات المجيء، أنه يشمل فكرة الفرح والانتصار (بروسيّا)، واعلان ما كان مخفياً (أبوكالوبسيس)، والظهور (ايبيفانيّا)، والنهاية (اسكاتولوجيا) والدينونة (هيميرا).

وأما في الرأي العام، فمفهوم المجيء الثاني ينحصر في فكرة الدينونة في نهاية الأزمنة: يعود المسيح ليدين الأحياء والأموات. وأمّا دراستنا فأوضحت معنى الفرح والانتصار، عندما يظهر المسيح ويعلن نفسه ممجَّداً. هذا هو غنى مضمون المجيء الثاني.

ونريد هنا توضيح انتصار المسيح. ففي اللاهوت المسيحي، أولى خطوات هذا الانتصار هي القيامة، وآخرها المجيء. انتصر المسيح بموته

وقيامته على الشريعة من جهة والخطيئة من جهة أخرى، وهما عدوّا المسيح. وأمّا العدو الثالث فسينتصر عليه المسيح في الاسكاتولوجيا. وهو الموت (راجع نص ١ قور ١٥).

ويسهب بولس في وصف هذا الانتصار على القوى: السلطات، الكراسي، الأرباب. القوات... بحسب توضيحه لها. فهذه القوى هي إمّا معادية له (روم ١٦ / ٢٠ و١ قور ٢ / ٨ و ٥ / ٥ و٧ / ٥ و١٠ / ٢٠ و١٢ / ٢ و١٥ / ٢٤ و٢ قور ٢ / ١١ و٦ / ١٥ و١١ / ١٤ و١٢ / ٧ وأف ٦ / ١١ — ١٢ وقول ١ / ١٣ — ١٦ و١ طيم ٤ / ١١)، وهي تقاوم، في فترة ما بين القيامة والمجيء، المسيحيين ونشر الانجيل، وإمّا هي قوى كونية ستصالح (أف ١ / ٢٠ — ٢١ وقول ١ / ١٦ — ٢٠ و٢ / ١٠)، وهي مقيّدة بموت / قيامة المسيح. فسواء أكانت هذه أم تلك، فإن المسيح المنتصر بقيامته يترك لها نوعاً من السلطة كمهلة لحين مجيئه، ولكنها مهزومة منذ الآن، منذ قيامته. وستُسحق في المجيء، وسلطتها ضئيلة ومحدودة إذاً.

وللتعبير عن انتصار المسيح هذا، يستخدم بولس تعابير وألقاباً للمسيح:

* «الرب» (Kurios): ستتجلى الربوبية في النهاية. قد بدأت بالقيامة (١ قور ٩ / ١ و٢ قور ٤ / ١٤ وروم ٤ / ٤٢)، وهي حاضرة منذ الآن (١ تس ٤ / ١٦ و٢ / ١٩ و٣ / ١٣ و٢ تس ١ / ٧ و٢ قور ١ / ١٤)، وهي تعمل الآن ليكون المسيح رب الأحياء والأموات (روم ١٤ / ٩).

* «المجد» (Dox a): ١ قور ٢ / ٨ و٢ قور ٣ / ١٨ و٤ وقول ٣ / ٤.

* «الملك» (Basileus): قول ١ / ١٣، أفس ٥ / ٥.

* «عن يمين الآب»: روم ٨ / ٣٤ وأف ١ / ٢٠ وقول ٣ / ١.

* تأثير المجيء الثاني في المؤمنين: في حديثنا عن «المسيحي في لاهوت بولس»، في القسم الثالث، سنوضّح تأثير المجيء في المؤمنين، وحسبنا الآن أن نقول ان الخليقة بأجمعها تئن لتجلّي أبناء الله (روم ٨ / ١٨ — ٢٥). والآن فإن الحقائق الجسدية صورة للحقائق الروحية التي أُعطيت منذ الآن، ولكنها ستُكشف وتكتمل نهائياً عند المجيء الثاني: كمعرفة الله، ونيل الروح القدس عربوناً للميراث، والحقائق السماوية... (روم ٨ و٢ قور ١ / ٢٢ و٥ / ٥ وأف ١ / ١٤).

والمجيء يسمح بتقييم البشر (١ قور ٣ / ١٣) وأعمالهم (٤ / ٣+).

ويجب هنا التذكير بأن المسيحية الأولى كانت تترقّب المجيء الثاني ترقّباً شديداً واضحاً في ١ و٢ تس، في ضوء القيامة والعنصرة. وحمل الانتظار بعض المسيحيين على عدم العمل، لأن الرب قريب (٢ تس ٣ / ٦). فبولس يصحّح هذه الأوضاع، وان كان يؤمن باقتراب المجيء (١ تس ٤ / ١٧، روم ١٣ / ١١)، ويدعو في سبيل ذلك إلى السهر لأن اليوم يأتي كالسارق (١ تس ٥ / ٢).

ولـمّا تأخّر المجيء، ازدادت توصيات بولس

من أجل القيام بعمل الخير (غل ٦ / ١٠ وأف ٥ / ١٦ وقول ٤ / ٥)، والعمل بالوصية (١ طيم ٦ / ١٥) ليصبح المؤمن ابن النور (أف ٥ / ٨)، وتحمُّل الشدائد والآلام (١ قور ٤ / ٨ — ١٣). ومع كل ذلك، يُستدعى المجيء: ماراناتا، تعال (١ قور ١٦ / ٢٢ و٧ / ٢٩ و٣١ وفل ٤ / ٥ وروم ٨). ولا يزال المسيح، رغم تأخّر مجيئه الثاني، ممجّداً كما رأينا.

بعد بولس

لم يكتمل لاهوت المجيء الثاني مع بولس، ولكننا نجد في الأناجيل ملامح كثيرة عنه. وقد سبق لنا أن أوضحنا ارتباطه بحلول الروح القدس (يو ١٤، ١٦)، وبوصية المحبة (متى ٢٥ / ٣١+) «كنت جائعا... عطشان... كل ما فعلتموه لواحد من اخوتي هؤلاء الصغار، فلي قد فعلتموه». ففهم المسيحيون تدريجياً أن المسيح منذ حلول الروح القدس في عملية مجيء، يأتي خطوة خطوة، ولا في لحظة، كما كانوا يعتقدونه. وهذا المجيء مرتبط بالمحبة، إذ ان المسيح يتمجّد في جسده ولاسيما في أعضائه الضعيفة. وبهذا المعنى قال بطرس: «ما أحوجكم إلى قداسة السيرة والتقوى، تنتظرون وتستعجلون مجيء يوم الله» (٢ بط ٣ / ١٢). فهكذا يرتبط مصير المجيء الثاني بمصير البشرية[١].

١. للمزيد من الاستفسار، راجع الأب فاضل سيداروس اليسوعي: المجتمع في ميزان الكنيسة (الوحدة الثالثة) — سلسلة «الايمان والحياة» رقم ٥.

الفصل الثاني

قيامة يسوع المسيح

نقطة الانطلاق

١ — إن فكرة القيامة غير واردة عامةً في العهد القديم، فهي مجهولة في مثل الرؤياويات عندما تتحدث عن «المسيا» أو «ابن الانسان»، فجلّ ما هناك أن ابن الانسان يأتي في مجده على السحاب. غير أن الايمان «بقيامة الأموات» ظهر مؤخرّاً في اليهودية، في القرن الثاني قبل ميلاد يسوع المسيح، عندما استُشهد المكابيّون عن يد أبيفانيوس (Epiphane) سنة ١٦٧ ق. م.، فتساءل اليهود ما مصير الصدّيقين. فمن المعروف أن اليهود كانوا قبلئذ يؤمنون بأن الموتى ينزلون إلى الجحيم بجسدهم ونفسهم. وهو مقرّ الموتى بعيداً عن الله. فان كان الموت نهاية الحياة في أنثروبولوجيّتهم، الّا أنه ليس بنهاية الوجود، فالموت لا يُفني الانسان، بل يستمر وجوده في الجحيم، وان في وجه بعيد كل البعد عن الحياة.

وفي القرن الثاني قبل الميلاد، نشأ الايمان بقيامة الأموات، وقد دعا إليها الأنبياء. وكان تصوّر اليهود أن الأموات ينزلون إلى الجحيم حيث لا علاقة بينهم وبين الله ولا فيما بينهم، حتى القيامة حيث يتمّ اللقاء العام الشامل. وأما طريقة القيامة فكانت تشغل فكر اليهود. فكانت التصوّرات في هذا الشأن إمّا مادية وإمّا روحية. أمّا المادية فكانت تعتقد أن عظماً من عظام العمود الفقري في شكل لوزة لا ينحلّ، وهو مختلف من شخص إلى آخر، مما يسمح لهم بالتعارف. وسؤال الصّدوقيين ليسوع عن الزوجة التي تزوجت من سبعة اخوة، فزوجة مَن تكون في القيامة؟ (متى ٢٢ / ٢٣+)، فيدخل في اطار هذا التصوّر المادي[1]. وأمّا التصوّر الروحي فهو الذي عبّر

١. لم يؤمن الصدّوقيون بالقيامة، وقد أتى سؤالهم من باب السخرية، الّا أنه ينمّ عن عقلية مادية.

عنه يسوع في ردّه عليهم، أنه لا زواج في قيامة الأموات، إلّا أن الانسان يكون بجسده.

وعبرة النظرة اليهودية، سواء أكانت عن الجحيم أم عن القيامة، هي نظرة لا تفصل في الانسان بين جسده ونفسه. فالانسان بعد موته يظل متّحد العنصرين اللذين يكوّنان شخصه، خلافاً للنظرة اليونانية التي تفصل الواحد عن الآخر بعد الموت.

هذا ما ورثه بولس الفريّسي، وهذا ما كان موضع تساؤل القورنتيّين (في ١ قور ١٥): كيف تجري القيامة؟ وسيأتي الحديث عن ردّ بولس عليهم في حينه.

٢ — لكن بولس لم يعتمد في فهمه لقيامة المسيح على الايمان والتصوّرات اليهودية فحسب، بل فهم عمق قيامة المسيح في ضوء ايمان الجماعة المسيحية. لذلك بوسعه أن يصرّح: «بلّغتُ إليكم ما تسلّمته، وهو أن المسيح مات...» (١ قور ١٥ / ٣+ وراجع أيضاً ١ تس ٤ / ١٤ وروم ٤ / ١٤ و١٠ / ٩). فايمانه بقيامة المسيح يعتمد أساساً على اختبار الجماعة المسيحية الأولى لقيامة المسيح من بعد صلبه وموته ودفنه. علماً بأن فكرة قيامة المسيّا لم ترد في إيمان اليهودية، فالقيامة حدث لم يتوقّعه اليهود[٢].

٣ — وهناك أيضاً اختبار بولس الشخصي لقيامة المسيح، ويظهر ذلك في ثلاث رسائل:

* في غل ١ / ١٢— ١٧، ٢٢— ٢٣: يسوع المسيح يكشف (Apocaypsis) نفسه لبولس قائماً من الموت. وفي هذا النص دعوة نبوية واضحة (الآية ١٥) من الله لبولس، كما دعا الأنبياء ولاسيّما أشعيا (أش ٤٩ / ١ — ٦ المتأثر بنص أر ١ / ٥).

* في فل ٣ / ٧— ١٤: عرف بولس المسيح وقوة قيامته وشاركه في آلامه (الآية ١٠)، وهذه المعرفة اسكاتولوجية ووجودية في آن واحد. ثم ان المسيح استولى عليه (الآية ١٢) وبولس يسعى للاستيلاء عليه، وهذا نتيجة حدث طريق دمشق حيث أصبح خلقاً جديداً.

* في ١ قور ٩ / ١ — ٢ و١٥ / ٨— ١٠: يؤكّد بولس أن يسوع «أرى نفسه له» (١٥ / ٨) وفي ذلك مبادرة من المسيح القائم، كما بادر في إظهار نفسه للتلاميذ بعد قيامته. وهو يقول أيضاً: «رأيت ربّنا يسوع» (٩ / ١)، مدافعاً عن نفسه، اذ كان البعض يشكّ في رسوليّته وظهور المسيح له كسائر الرسل، ولكن واضعاً نفسه داخل جماعة الرسل، اذ يقول «ربّنا» ولا «ربّي»، معتبراً نفسه «السقط» (١٥ / ٨) الذي أضيف إلى لائحة الرسل والظهورات.

* فخلاصة قولنا أن بولس اختبر حقاً يسوع المسيح القائم الممجّد. فايمانه بقيامة المسيح قد اعتمد على ايمان الجماعة المسيحية وبوادرها في

ويمكن القول ان التصوّر الاسلامي عن القيامة والسماء (حيث الحوريات...) تصوّر من هذا النوع الذي لا يخلو من المادية.

٢. هناك بذور في مثل أناشيد «عبد يهوه» الأربعة في سفر أشعيا (خاصة ٥٢ / ١٣— ٥٣ / ١+) وفي بعض المزامير كالمزمور ٢١.

العهد القديم، الا أنه مبنيّ على اختباره الشخصي للمسيح الذي أرى نفسه له وكشف له ذاته ودعاه رسولا.

التعابير والكلمات عن القيامة

في محاضراتنا عن «سر موت وقيامة يسوع المسيح» في القاهرة ١٩٨٠— ١٩٨١ الفصل الثاني، أظهرنا أن بولس استخدم تعبيرين للدلالة على قيامة المسيح: «الله أقامه من بين الأموات» و«المسيح قام».

وأما التعبير الأول، فهو الذي تستخدمه الخطب في أعمال الرسل واستعمله بولس في مثل روم ١ / ٤ و١٠ / ٩ و٤ / ٢٤ و٨ / ١١ و٦ / ٤ و١ قور ١٥ / ١٥ و٦ / ١٤ و٢ قور ٤ / ١٤ و١ تس ١ / ١٠. ويقول بولس في روم ٦ / ٤: «المسيح أقيم من بين الأموات بمجد الآب». فاستخدامه لحرف dia (بالعربية «ب»)، يليه مضاف إليه («المجد»)، يعني «عن طريق مجد» الآب. فالله الآب هو الذي أقام يسوع من بين الأموات.

وأما التعبير «المسيح قام» فهو وارد في مثل ١ قور ١٥ / ٣+، ويُعتبر هذا التعبير تعمّقاً في لاهوت يسوع المسيح. فليست القيامة من فعل الآب فقط، بل من ذات فعله ايضاً، لأنه إله كالآب.

وأما الكلمات للدلالة على القيامة، فثمة كلمتان: الأولى تقليدية وهي باليونانية Egeiromai، أي استيقظ من النوم، وقد أوردها بولس داخل ١ قور ١٥ / ٤ و٢ طيم ٢ / ٨ وهما مقطعان ليس هما من تأليفه، بل من تأليف الجماعة المسيحية. والكلمة الثانية هي Anistamai، أي قام من على الفراش وهي التي يستخدمها عامةً بولس للتعبير عن القيامة.

التعابير والكلمات عن التمجيد

وفي رسائل بولس وسائر كتب العهد الجديد تقليد آخر يدل على أن يسوع المسيح حي بعد موته، وهو يكمّل التعبير الأول، أي «القيامة». وهذا التقليد يستخدم كلمات مثل «رفع»، «تمجّد»، «السيد»، «الرب»...، وتعابير مثل «صعد إلى السموات»، «جلس عن يمين الآب»، «تجثو له كل ركبة في السماء والأرض والجحيم»...

فالقيامة هي بالفعل تمجيد الآب للابن (روم ٨ / ١١)، فيصبح المسيح ربّاً وديّاناً للأحياء والأموات (روم ١٤ / ٩ و٢ طيم ٤ / ١)، رب المجد (١ قور ٢ / ٨ وفل ٢ / ١١). ففي حين ان حياته الأرضية كانت ظهوراً لله، لحبّه ونعمته (٢ طيم ١ / ١٠ وطي ٢ / ١١ و٣ / ٤)، أصبحت قيامته تمجيد الله في قوته (روم ١ / ٤). فيظهر مجد الله على وجهه (غل ٤ / ٧ وقول ١ / ١٥)، ويصبح المسيح الرب وهو روح، ونحن نعكس صورة مجده. (٢ قور ٣ / ١٨ — راجع أش ٤٠ / ٥). ويعبّر نشيد قولسي عن كل ذلك في التعبير «هو بكر الأموات» (قول ١ / ٨ و١ قور ١٥ / ٢٠)، بمعنى أن المسيح بقيامته هو أول من دخل

العالم الجديد، بل هو الذي أنشأ هذا العالم الجديد وخلقه وفتحه للبشر. فالقيامة هي الخطوة الأولى لمجد المسيح، في انتظار الخطوة الأخيرة، ألا وهي مجيئه الثاني[3].

المسيح الحيّ بين قيامته ومجده

اختبر الرسل أن يسوع المسيح، الذي مات مصلوباً، لا يزال حياً: «لهم أرى نفسه حيّاً» (رسل ١ / ٣)[4]. فحياته هذه هي محور اختبارهم الايماني ومحور اعلانهم له. فحاولوا أن يعبّروا عن حالته هذه، مستخدمين لغتين أصبحتا فيما بعد تقليديَن أو تيّارَين أو اتجاهَين: أمّا الأول فهو تقليد «القيامة» الذي يستعين بالخلفية الزمانية «قبل / بعد»، أي قبل موته وبعد موته فقيامته. وأمّا التقليد الثاني فهو تقليد «التمجيد» أو «الرفع» الذي يستعين بالخلفية التمجيدية «تحت / فوق»، أي صعوده من تحت إلى فوق، من حياته الأرضية المتواضعة، حيث كانت ألوهيته مستترة، إلى حياته السماوية الممجَّدة. ونشرح ذلك باستفاضة:

١ — **القيامة**: يختصّ هذا الاتجاه بالاعترافات الايمانية بموت / قيامة المسيح والاعلان عنه. وهو يربط ما بين يسوع الناصري (الذي عرفه اليهود والشهود) ويسوع المسيح القائم، بين يسوع الشخص في التاريخ ويسوع المسيح الممجَّد عن يمين الآب، بين يسوع الذي تألّم وأهين وصُلب ومات ودُفن، ويسوع المسيح الذي أقامه الله من بين الأموات، بين يسوع الزمني ويسوع المسيح الأبدي... ويتميز هذا الاتجاه بسرد الأحداث، من ايقافه في بستان الزيتون ومحاكماته وحمله الصليب وصلبه وكلامه على الصليب وموته ودفنه، فقيامته وظهوراته والقبر الفارغ وصعوده. هذا المنبع كان سائداً في البيئة المسيحية الفلسطينية اليونانية. وأمّا فنه الأدبي فهو يعود إلى الفن «النبوي» (ما حدث للنبي يسوع كما حدث لغيره من الأنبياء من اهانات وقتل...، مع الفارق العظيم الخاصّ بقيامته)، والفن «الأخروي» (آخر الأزمنة Eschatologia)، حيث الحديث عن القيامة من بين الأموات).

٢ — **التمجيد**: هذا هو اتجاه الأناشيد الليتورجية التي يسبّح فيها المسيحيون ويرتلون وينشدون مجد يسوع المسيح وربوبيته وسيادته. فليس الهدف اعلاناً أو اعترافاً ايمانياً به، بقدر ما هو الاشادة به في الاجتماعات الليتورجية. ولا يركز هذا الاتجاه على الأحداث التاريخية (الآلام، الصلب، الموت، الدفن...). ولا يربط بين يسوع التاريخي ويسوع المسيح المنتصر، بقدر ما يعبّر عن سر تمجيده، عن تحويله إلى الربوبية والسيادة. وهذا الفن هو «رؤيوي»

٣. سنعود الى كل ذلك بتحليل أدق في الفصل الرابع، ختاماً لكلامنا على لاهوت بولس في المسيح.
٤. أظهرنا في تحليلنا لظهور المسيح لتلميذي عماوس، في المحاضرات المذكورة آنفا، أن النص كله يتمحور حول هذا الاعتراف الايماني: «انه حيّ:» (لو ٢٤ / ٢٣).

Apocalyptique (أي الذي يُظهر مصير ابن الانسان والمسيح في مجده وعظمته) و«ظهوري» Théophanique (أي الخاص بـ«ظهور الله»). وكان متداولاً بين الجماعات اليهودية الساميّة وبالأخص في الجليل. وهذان المنبعان (القيامة — التمجيد) وجهان متكاملان للسر نفسه: ان «التمجيد» يعمّق «القيامة»، وينظر إليها من الداخل، ويتأمّل فيها تأمّلاً عميقاً، ويشاهد حالة يسوع المسيح القائم ممجّداً. وهو ضرورة يشعر بها الشعب المسيحي ويعبّر عنها في اجتماعاته الليتورجية مهلّلاً ومرنّماً. غير أن تيار «القيامة» ساد، في العهد الجديد وفي الجماعات المسيحية الأولى وفي تاريخ الكنيسة، على تيار التمجيد، بل وشمله. وميزته أنه يؤسس الايمان على ركيزة تاريخية ثابتة: يسوع الشخص التاريخي الذي تألم وصُلب ومات ودُفن...، في حين أن الاعتماد على تيار «التمجيد» فقط قد يُفقد البُعد التاريخي، وفي نهاية الأمر البُعد البشري، الانساني، ليسوع. وبتعبير آخر، ان تيار «القيامة» أشدّ ابرازاً لانسانية يسوع وحياته الأرضية، وتيار «التمجيد» أكثر دلالة على حالته النهائية في مجد الآب. لذلك هما وجهان للسر نفسه، سر الحياة البشرية وسر المجد الأبدي.

لاهوت القيامة

بعد تحليلنا الكتابي للقيامة، بمقدورنا أن نحاول إظهار ملامح لاهوت القيامة، منطلقين من تساؤلات القورنثيين (١ قور ١٥): هل للأموات قبل المجيء الثاني للمسيح من قيامة؟ (الآية ١٢+) وكيف تتمّ هذه القيامة؟ (الآية ٢٣+) وكيف يقوم الأموات وفي أي جسد؟ (الآية ٣٥+). ونردّ على هذه التساؤلات في اتجاهين: أمّا الأوّل فيختص بواقعة قيامة الأموات في الدينونة العامة التي تسبقها مشاهدة الله من قِبَل الذين رقدوا، وأمّا الثاني فحالة الجسد عند قيامة الأموات.

واقعة قيامة الأموات: في الكتاب المقدس مسلّمة لاهوتية (Donnée théologique) وهي أن الله وحده هو الحي، وأمّا الانسان فيحيا بهبة من الله، والحياة البشرية هي اشراك من الله للانسان في حياته. فمن دون الله، لا يحيا الانسان أبداً[٥]. وثمة مسلّمة أنثروبولوجية أيضاً (Donnée anthropologique) وهي أن الكتاب المقدس لا يفصل في الانسان بين جسده ولحمه ونفسه وروحه، فهو جسد ذو نفس، خلافاً للنظرة اليونانية التي تعتبر الانسان نفساً متجسّدة، والنفس عند الموت تبحث عن جسد آخر لتتجسّد فيه ثانيةً — وهذا ما يُعرف بـ«التناسخ» (Métempsychose) — لتتطهّر من خطاياها. فالموت في النظرة اليونانية هو انفصال النفس عن الجسد، والنفس خالدة. وأمّا الجسد ففانٍ. وأمّا الموت في النظرة الكتابية فليس هو — كما رأينا سابقاً — انفصال الروح عن الجسد، بل نزولها معاً

٥. وسنرى، في حديثنا عن الخطيئة والموت، أن الخطيئة تسبب موت الانسان لأنه ينفصل عن الله.

في الجحيم، ثم أصبح، بعد الايمان بقيامة الأموات، الحياة بالجسد والروح.

ويترتّب على ذلك أن «قيامة الأموات» غير مبنيّة على خلود النفس، كما يعتقده اليونانيون، بل مبنيّة على الله الحي الذي لا يقبل أن ينزل الصدّيقون إلى الجحيم (دا ١٢ / ٢ وهو ٦ / ١ — ٢ وحز ٣٧). فالنظرة الكتابية لا تمنح النفس وحدها صفة الخلود (كاليونانيين)، ولكن النفس والجسد هما معاً[٦]، وان كان خلود الجسد لاحقاً لخلود النفس (كما الأمر هو في المعتقد المسيحي أيضاً).

كل ذلك مبنيّ على الخلفيّة الزمانية «قبل / بعد» التي رأيناها. وهناك في الكتاب المقدس نظرة أخرى مكمّلة لهذه وهي مبنية على الخلفيّة التمجيدية المشار إليها «تحت / فوق»، في مثل خطف أو انتقال ايليا أو أخنوخ (سير ٤٤ / ١٦) من الأرض أو من الجحيم إلى السماء، وكما هو وارد في بعض المزامير وسفر الحكمة وفي أشعيا. فليس المقصود هنا نهاية الأزمنة كما الأمر هو في «قيامة الأموات» المبنية على الخلفية الزمانية، بل الرفع والتمجيد بالخلفية التمجيدية. وكلتا الخلفيتان متكاملتان لا تتناقضتان. فالصدّيقون بقرب الله سواء في التعبير «القيامي» أو التعبير «التمجيدي».

واذا حاولنا أن نفهم المعتقد المسيحي، بعد هذه الجولة في المفهوم الكتابي، لخّصناه على النحو التالي:

١ — الثواب والعقاب يَتمّان في الدينونة في نهاية العالم، وهذا هو المعروف بقيامة الأموات. ونظراً إلى أن الانسان ناقص دون جسده (يتكلّم قانون الايمان على «قيامة الأجساد») فالأجساد ستحيا مرّة ثانية في نهاية العالم، عندما يقوم الأموات (الخلفية الزمانية «قبل / بعد»).

٢ — غير أن النفس، قبل قيامة الأموات، تحظو بالسعادة الأبدية والمشاهدة الالهية (الخلفية التمجيدية «تحت / فوق»، وان كان في ذلك تأثير من الأنتروبولوجيا اليونانية التي تعتبر النفس فقط خالدة، والموت انفصالها عن الجسد.

وللمزيد من الايضاح اللاهوتي والعقائدي، يمكن القول ان البابا يوحنا الثاني والعشرين (١٣١٦— ١٣٣٤) شدّد على الاتجاه الأول القيامي الزمني، في حين أن البابا بندكتس الثاني عشر (١٣٣٤— ١٣٤٢) شدّد على الاتجاه الثاني التمجيدي.

فميزة الاتجاه القيامي الزمني أنه يُظهر البعد الجماعي للسعادة الأبدية والمشاهدة الالهية، إذ ان قيامة الأجساد تضع المشاهدين في علاقة متبادلة، والفرح يكتمل باكتمال الشخص البشري جسداً وروحاً في الأبدية. والى يوم قيامة الأموات. يعمل المسيح في العالم حتى يُخضع كل شيء وجميع البشر لنفسه فيخضع هو بنفسه للآب (١ قور ١٥ / ٢٨). أو، بعبارة أخرى، ان الاتجاه الزمني هو زمن تمخّض البشرية سعياً وراء السعادة

٦. سيتّضح ذلك في حديثنا عن الموت — أي انحلال الجسد مؤقتاً — بسبب الخطيئة. وأمّا في البدء فقد خلق الله الانسان بمعزل عن الموت، وعن انفصال النفس عن الجسد، وعن انحلال الجسد.

الأبدية والمشاهدة الالهية والمشاركة بين البشر الممجّدين. ويظهر بالمثل دور البشر في عملية التمخّض هذه، وكذلك دورهم في الشفاعة من أجل الأموات. واليقين أن هذا التمخّض سيؤدي الى فرح القيامة، اذ يعود الى قيامة المسيح نفسه بكر الأموات (١ قور ١٥ / ٢٠+). فالقيامة تشمل الشخص كله (جسداً وروحاً)، وكل شخص (جميع البشر مدعوون إليها) بفعل خلاص المسيح.

وأما ميزة الاتجاه التمجيدي فتكمن في أنه يُظهر علاقة الشخص بالله منذ موته، والله هو الحياة ومانح الحياة، فلا تنتهي هذه العلاقة ولا تنتهي الحياة عند الموت، بل يصبح الموت حياة جديدة بالقرب من الله. فالاتجاه التمجيدي يُبرز العلاقة الشخصية مع الله (وهذا ما لا يُبرزه الاتجاه الأول بحد ذاته) وان نقصته العلاقة مع الآخرين (وهذا ما يُبرزه الاتجاه الأول). فالمشاهدة الالهية — بالنفس لا بالجسد — تُظهر جلياً انتصار المسيح على موت الشخص الذي يموت واستيلاءه عليه. وهذا ما قصده بولس عندما قال:

«الحياة لي هي المسيح، والموت غنم... لي رغبة في الذهاب لأكون مع المسيح...» (فل ١ / ٢١ — ٢٢). وهذا اختطاف أو انتقال للشخص بروحه عند المسيح بعد موته، في انتظار الجسد والآخرين.

وخلاصة القول ان الاتجاهين متكاملان غير متناقضين، سواء أكان على المستوى الكتابي أم العقائدي، كما تبيّن لنا. وهما يتلاحمان في عقيدة انتقال مريم العذراء إلى السماء بجسدها وروحها. فالعقيدة مبنيَّة على الخلفية التمجيديّة «تحت / فوق» حيث اختُطفت أو انتقلت من الأرض الى السماء، وهذه الخلفية تشمل الخلفية الزمانية «قبل / بعد»، اذ ان مريم ارتفعت الى السماء بجسدها، لا بروحها فحسب. ولم يقل التقليد المسيحي المختصّ بها انها ماتت، بل تنيّحت وانتقلت، اذ ان المسيح — وهو وحده — مات ثم قام، فلم تمت مريم ثم قامت، بل انتقلت الى السماء دون موت. هكذا يبدو ارتباط الاتجاهين الواحد بالآخر.

جسد القيامة الممجّد: نذكر أن القورنثيين قد أثاروا سؤالاً يختصّ بكيفية القيامة من حيث الجسد. وهذا السؤال شغل العديد من اللاهوتيين في تاريخ اللاهوت المسيحي.

كانت في أيام القورنتيين فلسفات كثيرة أثّرت فيهم، فصحّح بولس مفاهيمهم الخاطئة. كانت هناك النظرية الفيثاجورية القائلة باتّحاد النفس بجسد جديد، اذ إن الجسد القديم ينحلّ. وكانت هناك النظرة الهلّينية المسيحية التي كانت تعتقد، بناءً على خلود النفس، ان الانسان يسترجع الجثّة التي تركها عند موته.

وأمّا بولس فقد أكّد أنه سيحدث تحوّل للجسد: «نتبدّل» (١ قور ١٥ / ٥٢). فلن يفنى الجسد كما كان يعتقده اليونانيون، أو كما يظهر في انحلاله المادي الطبيعي عند الموت. فالجسد في شكله الظاهر ينحلّ دون ريب، الّا أنه، عند قيامة الأموات، يتحوّل، وتحوّل جسد المسيح القائم الممجد عربون لذلك. ويشرح بولس ذلك

التحوّل من خلال ثلاثة نقائض : (Oppositions)

١ — **الحالة** عند الموت مختلفة عنها عند القيامة :

«ما تزرعه أنت لا يحيا الّا اذا مات. وما تزرعه هو غير الجسم الذي سوف يكون... ان الله يجعل... جسماً كما يشاء» (٣٧ — ٣٨). فحالة الجسم تتغيّر. ويشرح ذلك قائلاً :

٢ — **الطبيعة** تتغيّر :

«يكون زرع الجسم بفساد، والقيامة بغير فساد. يكون زرع الجسم بضعف، والقيامة بقوة» (٤٣) ... «لا بد لهذا الكائن الفاسد أن يلبس ما ليس بفاسد، ولهذا الكائن الفاني أن يلبس الخلود» (٥٣). فالطبيعة تتحوّل من جسم فاسد الى جسم غير فاسد، من جسم فانٍ الى جسم خالد. يتابع بولس شرحه قائلاً :

٣ — **الأصل** نفسه يتغيّر :

«يُزرع جسم بشري، فيقوم جسماً روحانياً... الانسان الأول من التراب فهو أرضي، والانسان الآخر من السماء... كما لبسنا صورة الأرضيّ، فكذلك نلبس صورة السماويّ» (٤٤ — ٤٩).

فأصل الجسد البشري يتبدّل من بشريّ أو جسديّ الى روحيّ، من أرضيّ أو ترابيّ الى سماويّ. ولغير القورنثيين يقول بولس الكلام نفسه. فلأهل رومة يقول ان الخليقة التي «أُخضعت للباطل... ستُعتق من عبودية الفساد لتشارك أبناء الله في حريّتهم ومجدهم» (روم ٨ / ٢٠ — ٢١). «يسوع المسيح... يبدّل جسدنا الحقير فيجعله على صورة جسده المجيد بما له من قدرة» (فل ٣ / ٢١).

فخلاصة القول أن الموت ليس بانحلال، بل هو تحوّل وتبدّل في الحالة والطبيعة والأصل، كالزرع الذي يموت ليعطي حياة جديدة. هذا وقد مات يسوع المسيح عن العالم القديم ليحيا حياة جديدة، حياة القيامة، ويُحيي بها.

واذا تساءلنا عن مضمون هذا التحوّل والتبدّل، عمّا يطرأ من تغيير فعليّ في جسد الانسان عند قيامة الأموات، وجب لنا أن ننطلق من قيامة المسيح نفسه وتمجيد جسده عربون قيامتنا وتمجيدنا[7].

١ — تمجّد جسد يسوع، أي أن جسده البشري المجيد أصبح غير خاضع للزمان والمكان وللعناصر الطبيعية، خارجا عن عالمنا هذا وعن حدوده وقوانينه وشروطه وقيوده، محرَّراً من عالم الدنيا حيث تجسّد وعاش. وهذا ما تعبّر عنه الأناجيل عندما تصوّر لنا يسوع المسيح القائم يتراءى لتلاميذه «والأبواب مغلقة». فلم يعد هناك

٧. ثمة فرق بين قيامة المسيح وإحياء لعازر. في الحالة الأخيرة، تمّ إحياء جثّة هامدة رجعت الى حياتها الطبيعية. وأمّا حالة يسوع المسيح فمختلفة، بحسب قول بولس نفسه: «بعد ما أقيم من بين الأموات، لن يموت ثانية ولن يكون للموت عليه من سلطان» (روم ٦ / ٩).

ما يقيّد جسده، ولم يعد جسده في قبضة العالم الطبيعي.

٢ — ثم ان الجسد البشري عامةً هو مركز العلاقات البشرية. فالانسان يدخل في علاقة مع انسان آخر بواسطة جسده، كما أنه يحضر لانسان آخر من خلال جسده. ونظراً إلى أن الانسان هو في الزمان والمكان، فجسده خاضع لها، فلا يستطيع بالتالي أن يحضر لانسان آخر الّا في زمن معيَّن وفي مكان معيَّن. لكن الجسد المجيد يصبح حاضراً كليّاً لكل الزمان ولكل المكان، وبصفة مطلقة وبحرية تامة دون أي حد أو قيد. وهذا ما يعجز أن يفعله الجسد البشري العادي، اذ ان الأجساد منفصلة بعضها عن بعض بسبب الزمان والمكان. وأمَّا الجسد المجيد، فبوسعه أن يدخل في علاقة مع الأجساد البشرية الأخرى، مع البشر، من كل زمان ومكان، اذ انه خارجها ويشملها. لذلك تمكّن يسوع من القول: «اذا رُفعتُ من هذه الأرض، جذبت اليّ الناس أجمعين» (يو ١٢ / ٣٢). فانه يستطيع أن يجذب البشر بأجمعهم من كل العصور[٨] وكل الأماكن[٩] بفضل جسده الممجّد، وهذا ما لم يستطعه بجسده البشري قبل القيامة، اذ انه كان محدوداً في زمن معيّن ومكان معيّن. فالقيامة بدّلت جسده من جسد خاص الى جسد كلّي، شامل، أو — بعبارة بولس — من «الجسد البشري» (أو «النفسي») الى «الجسد الروحاني» (١ قور ١٥ / ٤٤ — ٤٩). والجسد الروحاني بوسعه أن يدخل في علاقة مع كل البشر.

٣ — وليست الأجساد البشرية منفصلة بعضها عن بعض بسبب الزمان والمكان فحسب، بل بسبب الخطيئة أيضاً. فالخطيئة فاصل بين الله والبشر، وبين البشر أنفسهم، وأمَّا القيامة من بين الأموات، فانها تزيل سلطان الخطيئة: «اذا لم يكن المسيح قد قام، فإيمانكم باطل ولا تزالون بخطاياكم» (١ قور ١٥ / ١٧) — «بموته قد مات عن الخطيئة» (روم ٦ / ٩). فبانتصاره على الخطيئة، بفضل موته وقيامته، وبإبطال سلطان الخطيئة، تكتسب الأجساد القائمة شفافية كاملة تسمح لها بالاتصال فيما بينها دون أي عائق. وبقيامته المجيدة اكتسب جسد يسوع شفافية مطلقة تجعله يدخل في علاقة مع كل البشر بدون أي حد ولا قيد. هذا ما لم يحدث في حياته على الأرض لأن جسده كان «جسداً شبه جسدنا الخاطىء» (روم ٨ / ٣) — «هذا الذي لم يعرف الخطيئة، جعله الله خطيئة من أجلنا» (٢ قور ٥ / ٢١) — «صار جسداً ولعنة من أجلنا» (غل ٣ / ١٣).

وهذه الشفافية تسمح للمسيح بأن يدمج في شخصه الممجّد كل البشر، وهذا ما سنراه في الفصل الرابع.

٨. «ها أنذا معكم طوال الأيام الى انقضاء الدهر» (متى ٢٨ / ٢٠).

٩. «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي، كنت هناك بينهم» (متى ١٨ / ٢٠).

الخاتمة: لقد أظهرنا في هذا الفصل أهم ملامح قيامة المسيح. غير أن القيامة تستدعي الموت الذي سبقها. ركّز بولس اهتمامه على القيامة في البداية، لكن تفكيره وتأمّله قاداه الى القاء نظرة على موت المسيح. وفي معظم الأحيان يشرك الموت والحياة، أو الموت والقيامة. ومثل هذا التضاد (Opposition) أمر متواتر عنده (مثلاً ١ قور ٣ / ٢٢ — ٢٣ وروم ٨ / ٣٨)، ويعود الى تأثير هلّيني، في حين أن في الرسالتين الى كنيسة تسالونيقي —وهما أولى الرسائل— لا نجد هذا التضاد. وقد حان الوقت لأن نعرف ما هي نظرة بولس الى موت المسيح.

الفصل الثالث

موت المسيح

نقطة الانطلاق

يعود الفكر اللاهوتي البولسي عن موت المسيح إلى تأثيرات مختلفة :

١ — التقليد المسيحي : نقرأ في رسائل بولس ، استناداً إلى تقليد الجماعة المسيحية الأولى ، مثل هذا القول : «بلّغتُ إليكم قبل كل شيء ما تسلّمته ، وهو أن المسيح مات... وقُبر وقام... وتراءى» (١ قور ١٥ / ٣ — ٤) . فايمانه بموت المسيح يعود إلى ما تلقّاه بالذات بالقرب من حَنَنْيا بعد اهتدائه (رسل ٩ / ١٧ +) . والجدير بالذكر أن صيغة الاعتراف الايماني ، الوارد آنفاً في ١ قور ، صيغة لا تعود إلى بولس نفسه ، بل إلى الجماعة المسيحية الأولى ، ينقلها بولس في رسالته .

٢ — الوحي الشخصي : لقد كشف الله نفسه لبولس شخصياً ، وهذا ما يقوله مراراً في رسائله فيقول في البشارة : «ما تلقّيتها ولا أخذتها عن إنسان ، بل عن وحي من يسوع المسيح» (غل ١ / ١٢) . ويقول في الافخارستيا : «إني تلقّيتُ من الرب ما بلّغته إليكم» ، خاتماً كلامه بقوله : «كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يأتي» (١ قور ١١ / ٢٣ — ٢٧) . فتأمّله في «موت الرب» هذا يعود إلى ما أوحاه إليه الله نفسه .

٣ — الاختبار الشخصي : لكن وحي الله هذا قد تعمّق فيه بولس باختباره الشخصي ، الأمر الذي سمح له بأن يتحدّث عن موت المسيح في الأفخارستيا أو في العماد (روم ٦) . وممّا ساعده على ذلك ، الاضطهادات التي عاناها من أجل المسيح والبشارة ، حتى استطاع أن يقول : «أُتمّ في جسدي ما ينقص من آلام المسيح...» (قول ١ / ٢٤) . فالاضطهادات أشركته في موت المسيح

(راجع ١ تس ٢ / ١٤ — ١٦ و ٢ قور ٤ / ٧ +)[1].

٤ — **الصيغة اللاهوتية**: هذا وقد صاغ بولس كل ذلك صيغة لاهوتية انطلاقاً من تساؤلات مؤمني الكنائس التي أسّسها. وفي إطار العقلية والتعابير الهلّينية. وأتى فكره اللاهوتي عن موت المسيح فكراً أصيلاً مبتكراً من جهة، وأميناً للايمان التقليدي من جهة أخرى.

الكلمات والتعابير عن الموت

لا نجد في رسائل بولس تفاصيل عن موت المسيح. فلم يعرف المسيح «بحسب الجسد»، بل جلّ ما نجده هو لاهوت موت المسيح. وهذا ما نحلّله في هذا الفصل. وأمَّا الكلمات التي استخدمها فأهمّها:

* قُتل (Apocteino) : ١ تس ٢ / ١٥ — مات (Apothnesco) : ١ تس ٢ / ١٤ — جسد (Sôma وهو مرادف لكلمة موت في مثل العماد في جسد المسيح): ٢ قور ٤ / ١٠ و ١ قور ١٢ / ١٣.

* صليب — صلب: ١ قور ١ / ١٣ و ١٧.

* تألّم (Sumpasco) : روم ٨ / ١٧ — آلام (Pathèmata) : ٢ قور ١ / ٥ وفل ٣ / ١٠.

* ذبيحة: روم ٣ / ٥ — فداء: اف ١ / ٧ — دم الصليب: قول ١ / ٢٠.

* أُسلم — دُفن.

وأما التعابير اللاهوتية التي استخدمها بولس، فتدور حول ثلاثة محاور: الأول قانوني والثاني سياسي والثالث شخصاني، كل منها على مستويَين أحدهما اجتماعي والآخر فردي. ونصل إلى الجدول الآتي:

التعبير	الكلمة اجتماعياً	الكلمة فردياً
القانوني	التبرير	الحياة
السياسي	التحرير	التحويل
الشخصاني	المصالحة	الدمج

ومختصر كلام بولس اللاهوتي هو أن موت المصلوب منبع الخلاص (١ قور ١ / ٢٣ و ٢ / ٢ و ٢ قور ٣ / ٤ وغل ٣ / ١، ٦ / ١٤ وفل ٢ / ١). ولنحاول إذاً توضيح هذا الفكر اللاهوتي بناءً على الجدول الذي أوضحناه.

موت المسيح: التبرير والحياة

إن التعبير القانوني، الذي استعان به بولس ليعبّر عن الخلاص كنتيجة لموت المسيح، هو على المستوى الاجتماعي «التبرير» وعلى المستوى الفردي «الحياة».

في العهد القديم، يظهر الله في قضية وحكم مع شعبه (روم ٢ / ١٢)، إلّا أن العهد الجديد يُظهر برّ الله (روم ٣ / ٢١). فأصبح اختبار

[1] المثل الذي استحوذ على المسيحيين الأولين هو استشهاد اسطفانس، وقد روى لوقا قصة آلامه واستشهاده على نمط آلام وصلب المسيح (رسل ٧).

المؤمنين مزدوجاً: اختبار الخطيئة / اختبار برّ الله الذي يخلّص من الخطيئة. ولكي يُبرَّر المتّهَم، يجب أن يُحكَم على الخطيئة ويُقضَى عليها (روم ٨ / ٣ و ٢ قور ٥ / ٢١). هكذا تتحول اللعنة إلى بركة (غل ٢ / ١٣+).

ويتم التبرير بموت المسيح، وهو الشخصية المضادة لآدم الذي استوجب الخطيئة والموت، كما سنرى في حينه (روم ٥ / ١٨)، فثمة تضامن يجعل الواحد يموت من أجل الجميع لتبريرهم (٢ قور ٥ / ١٤).

ويتابع بولس كلامه مستعيناً بالتعابير التجارية، منها الشراء والفداء[٢] في العهد القديم، حين كان اسرائيل يعاني من عبودية مصر، اشترى (Padah بالعبرية) ونجّى (Ga'al) الله شعبه. فالمسيح بالمثل اشترى (Agorazô باليونانية) البشر بثمن باهظ (١ قور ٦ / ٢٠ و ٧ / ٢٣)، كما درجت العادة لدى الرومان، حيث كان سيد يشتري عبيداً ويُحرّر العبد بفدية. فالمسيح اشترانا وفدانا، إذ كنّا مباعين للخطيئة (روم ٧ / ١٤). وتمّ هذا الشراء بأن أصبح ملعوناً لنا (غل ٣ / ١٣ وقول ١ / ١٤ وأف ١ / ٧ وا قور ١ / ٣٠ وروم ٣ / ٢٤ — ٢٥). ويحسن ذكر التحويل الذي طرأ على بولس، فبيد أنه، قبل اهتدائه، كان يؤمن بأنّه ملعون من عُلّق على الصليب (بناءً على تث ٢٧ / ٢٦ و ٢١ / ٢٣)، آمن، بعد اهتدائه، بأن هذه اللعنة أصبحت بركة. وظهرت هذه البركة في الانسان، إذ ان الصليب يفدي أجسادنا الفانية (روم ٨ / ٢٣) في ملء الأزمنة (اف ١ / ١٤).

ويكمّل بولس حديثه مستخدماً اللغة البيولوجية، بتعبير الحياة الذي يختص بالأفراد. فبعد الموت تظهر الحياة (روم ٦ / ٤٣) كمثل الزارع (١ قور ١٥ / ٣٦ — ٣٨). ويصبح المؤمن «مع» (Sun) المسيح، ويحيا معه ويحيا حياته. وهنا يحسن بنا التوقّف عند نصّ يبيّن لنا ذلك: روم ٦ / ٥ — ١١. والنص مبنيّ على توازٍ بين الآيات ٥ / ٨ و٦ / ٩ و٧ / ١٠ و١١:

٥ اذا اتحدنا به في موت يشبه موته، فكذلك تكون حالنا في قيامته.

٦ وإننا نعلم بأن انساننا القديم قد صُلب معه ليزول هذا البشر الخاطئ، فلا نظلّ عبيداً للخطيئة.

٧ لأن الذي مات تحرّر من الخطيئة.

٨ فإذا كنّا قد متنا مع المسيح فإننا نؤمن بأننا سنحيا معه.

٩ ونعلم أن المسيح، بعد ما أقيم من بين الأموات، لن يموت ثانيةً ولن يكون للموت عليه من سلطان.

١٠ لأنه بموته قد مات عن الخطيئة مرة واحدة، وفي حياته يحيا لله.

٢. لم يفرض بولس هذا التعبير، وهذا نادر في رسائله. ولكن لاهوتياً معيّناً في الغرب بالغ فيه. وجدير بالذكر أنه، منذ اغناطيوس الأنطاكي الى يوحنا الذهبي الفم، لم يركّز اللاهوت عليه.

١١ فكذلك احسبوا أنتم أنكم أموات عن الخطيئة، أحياء لله في يسوع المسيح.

فالنص يدور حول الموت / الحياة «مع» (Sun) يسوع المسيح: المسيح مات / قام، والثمرة تنتقل إلينا بالمعمودية (الآية ٣ — ٤).

موت المسيح: التحرير والتحويل

من أثر موت المسيح أنه يحرّر البشر من الخطيئة والشريعة والقوى والموت، «والموت آخر عدو يُبيده» (١ قور ١٥ / ٢٦). فالتحرير على المستويات المختلفة هذه يستوجب تحليله باللغة السياسية المكمّلة للقانونية.

موت المسيح والتحرير من الخطيئة: فالمسيح بموته يحرّر من عبودية الخطيئة ليمنح حرية أبناء الله. فالعبودية / الحرية زوج عبري يعود إلى تحرير الله لشعبه من عبودية مصر وادخاله أرض الميعاد والحرية، كما أنها زوج يوناني يعود إلى شراء سيد عبداً من سيد آخر أو تحرير العبد نفسه من سيادة سيده إذا دفع ثمن حريته. فبهذا المعنى يقال ان موت المسيح يحرّر البشر.

يقول بولس:

+ عن العبودية: كنّا عبيداً للخطيئة (روم ٦ / ٧، ١٦، ١٩ — ٢٠)، مقيّدين بشريعة الخطيئة (روم ٧ / ٢٣)، تحت سيطرتها (روم ٣ / ٩)، مباعين لها (روم ٧ / ١٤)، وكانت هي تسودنا (روم ٦ / ١٤) وتتسلّط علينا (روم ٦ / ٢١). والحرف الذي يستخدمه بولس مراراً هو «تحت» (باليونانية Hypo): تحت سيطرة وسلطة وتأثير الخطيئة.

+ عن الحرية: وموت المسيح أثمر التحرّر من الخطيئة (روم ٦ / ١٨ و٢٠ و٢٢) لنكون في خدمة البرّ (روم ٦ / ١٨) وخدمة الله (روم ٦ / ٢٢)، محرَّرين من شريعة الخطيئة والموت (روم ٧ / ٢). هذا وقد متنا عن الخطيئة (روم ٦ / ٢ و٦) باشتراكنا في موت المسيح وبنيل المعمودية (روم ٦ و١٢ — ١٤)، لذلك يوصي بولس المؤمنين بألّا تتسلط الخطيئة على أجسادهم. إذ انهم في وضع جديد، فنالوا حياة جديدة (روم ٦ / ١٦ — ٢٣).

موت المسيح ومغفرة الخطايا: ومن الواضح في لاهوت بولس أنه يستخدم، لا التعابير والكلمات القانونية للحديث عن الخطيئة والتحرّر منها ومغفرتها، بل السياسية، للدلالة على أن سلطتها زالت كما تزول سلطة رئيس سياسي على ذويه. فليست الخطايا تقصيراً في الشريعة، الأمر الذي يستوجب حكماً قانونياً، بل هي نابعة من حالة الخطيئة، من سلطانها على الانسان. فبولس يدرك أن موت المسيح يُبطل سلطان الخطيئة، فيغيّر حالة الخطيئة التي يتميّز بها الانسان.

وحين يتحدّث بولس عن مغفرة الخطايا (Parèsis - Aphesis) (روم ٤ /٧ و١١ / ٢٧ و٣ / ٢٥ و١ قور ٥ / ١٩ واف ١ / ٧ وقول ١ / ١٤ و٢ / ١٣)، يمسّ الوضع الجديد، ذلك الخلق الجديد الذي هو ثمرة موت المسيح. وهذا هو التحويل الذي يمسّ الأفراد في كيانهم.

ويستخدم بولس تعابير «الذبيحة» الواردة في العهد القديم، لكنه لا يفرط فيها، إذ أنه يدرك أن

العهد الجديد يختلف في ذلك عن القديم. فثمة نصوص مهمة يتكلم فيها على ذبيحة المسيح التي تغفر الخطايا: «ذُبح حمل فصحنا، وهو المسيح» (١ قور ٥ / ٧). «المسيح الذي أحبّكم وجاد بنفسه لأجلنا ذبيحةً وقرباناً لله طيّبة الرائحة» (اف ٥ / ٢). «ابن الله الذي أحبّني وضحّى بنفسه من أجلي» (غل ٢ / ٢٠). «أرسل الله ابنه في جسد يشبه جسدنا الخاطئ كفّارة للخطيئة» (روم ٨ / ٣). «جميع الناس قد خطئوا فحُرموا مجد الله، ولكنهم نالوا البرّ مجّاناً بنعمته، ويعود الفضل إلى الفداء الذي قام به يسوع المسيح، وجعله الله كفّارة في دمه بالايمان ليُظهر ما هو برّه. فقد أغضى بحلمه عن الخطايا الماضية» (روم ٣ / ٢٣ — ٢٥).

ولكي نفهم هذه الأقوال، يجب أن نعود إلى العهد القديم حيث ان الذبيحة التي كان يقدّمها الاسرائيلي كانت تكفّر عن خطاياه، لأن الذبيحة كانت تعبّر عن التوبة. وهناك صور كثيرة عن ذلك في مثل «كبش الفداء» و«حمل الفصح» و«عبد يهوه» و«يوم الغفران» (Yôm Kippour) غير أن هناك فرقاً شاسعاً بين العهدَين القديم والجديد.

١ — لا تقترن الذبيحة بالألم، بل بالحياة، إذ ان الدم رمز إلى الحياة في العقلية اليهودية. غير أن فكرة الألم ظهرت في أناشيد عبد يهوه الأربعة وتمّت كلها في شخص يسوع المسيح، حيث نالت آلامه الخلاص من الخطيئة.

٢ — أصبح المسيح الذبيحة الوحيدة والنهائية، الوساطة بين الله والبشر، التي لم تعد تحتاج إلى غيرها. ولم يعد الانسان هو الذي يقدّم الذبيحة كفّارةً عن خطاياه، بل الله نفسه هو الذي جاد بابنه ليكفّر عن خطايا البشر بأجمعهم، داخل علاقة حب ومصالحة. فقد تمّت هذه الذبيحة بطاعته للآب ومحبته للبشر (فل ٤ / ٦ و١٠ / ١٦)[٣]. وفي نص ١ قور ١١ / ٢٣ — ٢٥ عن عشاء الرب، يقول بولس أن الجسد المقدَّم والدم المسفوك هما «من أجلكم»، مشيراً هكذا إلى أن الأفخارستيا ذبيحة، فهو يذكر الموت بقوله: «الليلة التي أُسلم فيها».

٣ — ببطلان الذبائح وفاعلية ذبيحة المسيح، أصبح المؤمنون هم الذبيحة الحقيقية: «اجعلوا من أنفسكم ذبيحة حيّة مرضيّة عند الله. فهذه هي عبادتكم الروحية» (روم ١٢ / ١). وتظهر هذه الذبيحة الحية في المحبة في الحياة، من خدمة الآخرين ومساعدتهم (فل ٢ / ١٧ و٤ / ١٨).

وخلاصة القول عن الذبيحة انها فعل محبة من الله الآب الذي جاد بابنه[٤]، ومن المسيح الذي ضحّى بنفسه، يتمّمها المؤمنون في حياتهم. غير أن بولس لا يعير أهمية بالغة للذبيحة، فإنه يستخدمها في لاهوته دون أن يُكثر من استعمالها.

٣. ان الرسالة الى العبرانيين تشرح كل ذلك بطريقة أوضح وأدقّ.

٤. يجب تحاشي التضخّم الذي يقع فيه الكثيرون عندما يصوّرون الآب يعاقب ابنه لارضاء نفسه.

موت المسيح والتحرير من الشريعة : لم يحرّر موت المسيح من الخطيئة فحسب، بل من الشريعة أيضاً. ورسالتا بولس إلى غلاطية وروما تدقّقان النظر في هذا الأمر. وإذا اعتمدنا أساساً على الرسالة إلى غلاطية، لاحظنا المراحل الثلاث للشريعة :

١ — **الشريعة / الوعد** : ان الشريعة الموسوية هي أساس الحياة الدينية عند اليهود، وهي بحدّ ذاتها صالحة، لأنها تُظهر ضعف البشرية وشرها دون الله (روم ٣ / ٢٠ و٤ / ١٥ و٧ / ١١). وقد استحال على البشر أن ينفّذوا الشريعة كاملة، فأصبحت بالتالي — وهي الصالحة — سبباً للعنة. فبدون الشريعة لا خطيئة، ولكن وجود الشريعة وعدم تنفيذها أمر يسبّب الخطيئة واللعنة ويقود إليهما (روم ٧ / ٧ — ٢٥). فصورة التقيّد بالشريعة هي هاجر زوجة ابراهيم وأم اسماعيل، على خلاف سارة المرأة الحرة وأم اسحق. فالشريعة تستعبد الانسان، جاعلةً منه كالطفل القاصر الذي لا يرث ميراثه. وهي لا تستطيع أن تغيِّر الطبيعة البشرية. وكيف يخرج بولس من المأزق : الشريعة الصالحة / الشريعة اللعنة؟ يعود بولس إلى ابراهيم : فابراهيم لم يُحسب له ايمانه لأنه نفّذ الشريعة وأطاع أوامرها فنال بركة الله، بل بركة الله هذه بفضل وعد الله لابراهيم وبالتالي للمؤمنين. أساس بركة الله لا يعود إلى أن الانسان يتمّم الشريعة، بل إلى أن الله نفسه وعد بها مجّاناً.

٢ — **الوعد / المسيح** : ويتساءل بولس : مَن هو وارث العهد. أهو اسحق ابن ابراهيم؟ يقرّ بولس بأن المسيح هو الوارث، لا اسحق. فموته على الصليب أبطل الشريعة (روم ٧ / ١ — ٦ وقول ٢ / ١٣ — ١٤) وحرّر من لعنتها، وقد أصبح هو نفسه لعنة لأجلنا. هكذا تظهر الشريعة مرحلة مؤقّتة فقط للخلاص، ولا تخلّص. فالوسيط ليس الشريعة، بل المسيح، وامتلاك الوعد، لا للشريعة، بل للمسيح. فلا يعود المؤمنون خاضعين للشريعة إذا زالت، كما أن الزوجة لا تعود خاضعة لزوجها إذا مات (روم ٧ / ٤).

هكذا يبدو أن الشريعة كانت فعلاً مربّية ومؤدّبة لحين قدوم المسيح. قبل المسيح، كان الانسان مغلَقاً على نفسه، بحراسة الشريعة، في انتظار العتق من هذه العبودية. وبالمسيح تمّ الوعد نهائياً وحلّت البركة النهائية.

٣ — **البركة / الروح** : هذه البركة هي في نهاية الأمر البركة الموعود بها ابراهيم، أي الروح. الروح هو الوعد الحقيقي والبركة الحقيقية. الروح هو العهد الجديد، في حين أن الشريعة هي العهد القديم. لذلك يدعو بولس إلى الروح، لا إلى الحرف (روم ٨ / ٢). فالروح يُحيي والشريعة تقتل، أو بعبارة أخرى، موت المسيح هو حقاً فصح، أي انتقال إلى سلطان النعمة والروح (روم ٦ / ١٤ و١ قور ٩ / ٢٠). فعلى المؤمن أن يموت بدوره عن الشريعة بصلبه مع المسيح. فجسد المسيح يُميت عن الشريعة ليجعل المؤمن يحيا لله

الذي يقيم من بين الأموات. في حين تعمل الشريعة عمل الموت في أعضاء المؤمن، تصبح الحياة الحقيقية هي الحياة بالروح (روم ٧ / ٤ +).

موت المسيح والتحرير من القوى: إن «رؤساء هذه الدنيا» قد صلبوا «رب المجد» عن جهل لقصد الله (١ قور ٢ / ٨)[٥]. ولكن يسوع المسيح، بموته على الصليب، انتزع سلطتها — كما رأينا في الفصل الأول. فانتصاره كامل مبدئيّاً، غير انه يترك لها شيئاً من الاستمرار في عمل الشر، لحين إخضاعها خضوعاً تاماً في مجيئه الثاني.

موت المسيح: المصالحة والدمج

ليس الله حاكماً فقط (ومن هنا التبرير) ولا هو السيّد فقط (ومن هنا التحرير)، ولكنه أيضاً الاله الذي يدخل في علاقة شخصية مع البشر ومع الأشخاص في العهد الذي يقطعه معهم. وهذا هو التعبير الثالث الذي استخدمه بولس في تأمّله في موت المسيح وفاعليّته. فمع التعبير القانوني والسياسي، هناك تعبير العلاقة بين الأشخاص، بين الله والانسان. وكما رأينا سابقاً، أن هذا التعبير على مستويين: مستوى الجماعة ومستوى الأفراد. وهذا مجمل ما يرد لدى بولس:

١ — المسيح مات لأجلنا: من الجدير بالذكر أن بولس لا يستخدم عامةً كلمة «خطايا» بصيغة الجمع، بل كلمة «خطيئة» بصيغة المفرد[٦]، واصفاً هكذا «حالة» الانسان المعادي لله. فما الخطايا التي يقترفها البشر وكل إنسان سوى نتيجة حالة الخطيئة الكامنة والمتأصّلة فيه (روم ٣ / ٢٥). والمسيح مات ليهدم هذه الحالة، حالة الخطيئة: «أُعتقتم من الخطيئة» (روم ٦ / ٢٢) — «لا نظلّ عبيداً للخطيئة، لأن الذي مات تحرّر من الخطيئة» (روم ٦ / ٦ — ٧). وإن تعابير بولس ليشرح أن المسيح مات من أجلنا كثيرة:

+ «مات المسيح... من أجل قوم كافرين» (روم ٥ / ٦).

+ «قد مات المسيح من أجلنا، إذ كنّا خاطئين» (روم ٥ / ٨ — ١ تس ٥ / ١٠).

+ «الأخ الذي من أجله مات المسيح» (١ قور ٨ / ١١).

+ «مات واحد من أجل جميع الناس» (٢ قور ٥ / ١٤).

هكذا لا يعني موت المسيح المسيحيين فقط، بل البشر جميعاً[٧]، أولئك الذين كانوا في حالة الخطيئة.

٥. يُظهر انجيل يوحنا الصراع القائم بين المسيح و«رئيس هذا العالم» الذي انتصر على يسوع ظاهرياً، غير أن يسوع المسيح قد ظفر حقيقةً: «ثقوا فقد غلبتُ العالم» (يو ١٦ / ٣٣).

٦. لكننا نجد صيغة الجمع عندما ينقل في رسائله كلام غيره، كالاعترافات الايمانية القديمة (١ قور ١٥ / ٣ مثلا).

٧. تعود هذه الفكرة — وهي متأخرة في اليهودية — الى النشيد الرابع لعبد يهوه (أش ٥٢ / ١٣ — ٥٣).

٢ — المسيح صالحنا مع الله: لا تتوقف فاعلية موت المسيح عند حدّ تسليم نفسه لنا ولجميع البشر، ولكنها ذهبت إلى أن موته صالح البشر مع الله، بقدر ما الخطيئة هي انفصال الانسان عن الله (روم ٥ / ١ — ٢ و ١٠). فموت المسيح أعاد العلاقة بين الطرفين.

+ «تم الصلح بيننا وبين الله بموت ابنه ونحن أعداؤه... به نلنا المصالحة» (روم ٥ / ١٠ — ١١).

+ «صالح بينهما (أي اليهود والوثنيين) وبين الله وقد قضى على العداوة بصليبه» (اف ٢ / ١٦ واش ٥٧ / ١٩).

+ «كنتم أباعد فصرتم أقارب (من الله) بدم المسيح» (اف ٢ / ١٣).

+ «في ربنا يسوع المسيح... استطعنا أن نجرؤ على التقرّب إلى الله مطمئنّين» (اف ٣ / ١٢).

+ «نعمنا بالسلام مع الله بفضل ربنا يسوع المسيح» (روم ٥ / ١ واش ٥٣ / ٥).

فالمسيح قد أعاد العهد الذي قطعه الله مع البشر ونقضه البشر دون وفاء. فهذا هو معنى المصالحة التي أتمّها المسيح[٨] فقرّبنا إلى الله وجعلنا في سلام معه.

ويستخدم بولس تعبيراً آخر للدلالة على المعنى نفسه، فلا يقول فقط ان المسيح صالحنا مع الله، ولكن الله نفسه صالحنا معه في شخص المسيح:

+ «الله صالحنا عن يد المسيح... لأن الله صالح العالم في المسيح» (٢ قور ٥ / ١٨ — ١٩).

+ «صالحكم (الله) في جسد (المسيح) البشري، إذ أسلمه إلى الموت» (قول ١ / ٢٢).

هذا وقد صالح الله البشر، بل الكون كله:

+ «شاء (الله) أن يصالح كل موجود، سواء في الأرض وفي السموات، فهو الذي حقّق السلام بدمه على الصليب» (قول ١ / ٢٠).

+ «خلع (الله) أصحاب الرئاسة والسلطة وعاد بهم في رَكبه ظافراً» (قول ٢ / ١٥).

فيعود الفضل في المصالحة إلى يسوع المسيح، وقد أرسل الله «ابنه في جسد يشبه جسدنا الخاطئ» (روم ٨ / ٣)، بل «جعله خطيئة من أجلنا» (٢ قور ٥ / ٢١)، فأصبح المسيح على الصليب «لعنة لأجلنا» (غل ٣ / ١٣). فالصليب يعبّر عن برّ المسيح وطاعته لله (روم ٥ / ١٨ — ١٩).

لذلك يصرخ بولس في نهاية مطافه في نشيد رائع عن محبة الله: «من يفصلنا عن محبة المسيح؟... لا شيء بوسعه أن يفصلنا عن محبة الله لنا في ربنا يسوع المسيح» (روم ٨ / ٣١+).

٨. عند بولس، «المصالحة» و«التبرير» مرادفان: روم ٥ / ٩ و١٦ — ١٩ و٣ / ٢١ — ٢٦ و٦ / ٧.

٣ — المسيح بموته يعبّر عن محبته ومحبة الله للبشر: في حديث بولس عن موت المسيح نبرة حب شخصية جداً، فيقول مثلاً: «ابن الله أحبّني وضحّى بنفسه من أجلي»، وبناءً على ذلك يصرخ: «ما أنا أحيا بعد ذلك، بل المسيح يحيا فيّ. وإذا كانت لي حياة بشرية، فإنها في الايمان بابن الله» (غل ٢ / ٢٠). ويمتد هذا الحب إلى الجميع: «المسيح أحبّكم وجاد بنفسه لأجلنا»، الأمر الذي يستدعي أن: «اقتدوا بالله على مثال الأبناء الأحبّاء، وسيروا في المحبة سيرة المسيح» (اف ٥ / ١ — ٢). ولقد بذل نفسه خاصة من أجل كنيسته: «أحب المسيح الكنيسة وضحّى بنفسه من أجلها»، ممَّا يترتب عليه أن «يقدّسها ويطهّرها بماء الاستحمام وبما يُتلى من الكلام، ويزفّها إلى نفسه كنيسة سنيّة لا شائبة فيها ولا تغضّن... بل مقدسة بلا عيب». لذلك يوصي بولس: «كذلك يجب على الرجال أن يحبّوا نساءهم (اف ٥ / ٢٥ — ٢٨). ويُظهر بولس محبة المسيح هذه للأخ الضعيف خاصة، «ذاك الأخ الذي من أجله مات المسيح. إذا خطئتم إلى اخوتكم وجرحتم ضمائرهم الضعيفة، فإلى المسيح قد خطئتم» (١ قور ٨ / ١١ — ١٣ وروم ١٤ / ١٥).

ونتيجة حب المسيح هذا أن يتّحد المؤمن به حتى يصبحا روحاً واحداً وجسداً واحداً (١ قور ٢ / ١١ — ١٢ و٦ / ١٦ — ١٧). لذلك يقول بولس: «تخلّقوا بخلق المسيح» (فل ٢ / ٥ — ١١)، فالاقتداء به ثمرة لبذله حياته حباً للبشر.

وان بذله نفسَه هو في آن واحد بذل الآب له ومحبته للبشر. في جملة واحدة يجمع بولس بين محبة الآب والمسيح: «قد دلّ الله على محبته لنا بأن المسيح قد مات من أجلنا» (روم ٥ / ٨). وبالمثل: «غفر لكم الله في المسيح... سيروا في المحبة سيرة المسيح الذي أحبّكم وجاد بنفسه لأجلنا» (اف ٥ / ١ — ٢).

٤ — المسيح بموته يتّحد بالمؤمن ويدمجه: لا يكتفي بولس بأن يُظهر محبة الله والمسيح عامة وما يترتّب عليها من ضرورة الاقتداء. ولكنه يذهب إلى أبعد وأعمق من ذلك في تبيان العلاقة بين الطرفين فيصبح المؤمن «في» (باليونانية "en") المسيح، لا «مع» المسيح أو «تحت» سلطة المسيح فقط. وهذا أبعد ما يمكن أن يصل إليه المؤمن في علاقته الشخصية بالمسيح.

ويتمّ هذا الاتحاد من خلال ثلاثة أفعال:

+ الايمان: «نحن نؤمن بأن المسيح قد مات وقام، فكذلك نؤمن بأن الذين ماتوا في المسيح سينقلهم الله إليه معه» (١ تس ٤ / ١٤).

+ العماد: «قد اعتمدنا في يسوع المسيح، إنَّما اعتمدنا في موته فدُفنّا معه بالمعمودية، لنموت فنحيا حياة جديدة». ويظهر إذاً الاتحاد والدمج بينهما: «فإذا اتّحدنا به في موت يشبه موته، فكذلك تكون حالنا في قيامته» (روم ٦ / ٣ — ٥ وقول ٢ / ١٢).

+ الافخارستيا: «أليست كأس البركة التي نباركها مشاركة في المسيح؟ أليس الخبز الذي نكسره مشاركة في جسد المسيح؟» الأمر الذي

يوحّد المشتركين في «جسد واحد لأنه ليس هناك إلّا خبز واحد، ونحن على كثرتنا جسد واحد لأننا نشترك في هذا الخبز الواحد» (١ قور ١٠ / ١٦ — ١٧ و١١ / ٢٦). فهذا الاتحاد يدمج المؤمن في المسيح الذي يجمع هكذا «كل شيء» في شخصه فيصبح «كل شيء في كل شيء» (اف ١ / ١٠، ٢٣).

الخلاصة: حلّلنا في حديثنا عن موت المسيح ثلاثة تعابير متكاملة: التعبير القانوني والسياسي والشخصاني على مستويَين: الجماعي والفردي. وهناك تعمّق من تعبير إلى آخر.

١ — فعلى المستوى الجماعي: التبرير يؤكّد قانونياً التحرّر من نزاعات التسلّط السياسية، والمصالحة تعمّق العلاقات الشخصية في الحب.

٢ — وعلى المستوى الفردي: الحياة تظهر في التحويل الجذري، ولكن الهدف هو الاتحاد والدمج بين المسيح والمؤمن.

«شوكة الموت هي الخطيئة»

بعد جولتنا في فاعلية موت المسيح، نتساءل: ما الذي سبّب الموت؟ «أين يا موت شوكتك؟» ويجيب بولس: «شوكة الموت هي الخطيئة وقوة الخطيئة هي الشريعة» (١ قور ١٥ / ٥٥ — ٥٦). فلا يكتفي بولس بأن يوضّح الوضع التناقضي للانسان في أنه ترابي / سماوي، بشري / روحي، الأمر الذي يبيّن أن الانسان «إناءٌ من خزف» (٢ قور ٤ / ٧)، ولكنه بحديثه عن الوضع التناقضي الفاسد / غير الفاسد، يُدخل عنصراً جديداً وهو العلاقة بين الشريعة والخطيئة والموت من ناحية، ونعمة المسيح من ناحية أخرى. فبعد أن أظهر العلاقة بين الثلاثي المذكور آنفاً، يصرخ قائلاً: «الحمد لله الذي آتانا الظفر عن يد ربنا يسوع المسيح» (١ قور ٥٥ — ٥٧)، أي ان الفضل يعود إلى نعمة المسيح التي ظفرت من الشريعة والخطيئة والموت. ويجدر بنا أن نتعمق في العلاقة بين الخطيئة / الموت. ففكر بولس واضح كل الوضوح في ذلك: «بالخطيئة دخل الموت» (روم ٥ / ١٢).

فيُرجع بولس الموت إلى الخطيئة. ويستدعي ذلك شرحاً وافياً. لنعتمد على نص بولس في روم ٥ / ١٢ — ٢١، وهو يتكوّن من أربع فقرات: ١٢ — ١٤ و١٥ — ١٧ و١٨ و١٩ — ٢١. والمحور هو الآية ١٨. هذا ومن المفيد توضيح النص:

١٢ «كما أن الخطيئة دخلت في العالم عن يد إنسان واحد، وبالخطيئة دخل الموت، فكذلك سرى الموت إلى جميع الناس، وبناءً على ذلك خطئوا جميعاً.

١٣ فالخطيئة كانت في العالم إلى عهد الشريعة، ومع أنه لا تُحسَب خطيئة على فاعلها إذا لم تكن هناك شريعة.

١٤ فقد ساد الموت الناس من عهد آدم إلى عهد موسى، حتى الذين لم يقترفوا خطيئة تشبه معصية آدم وهو صورة للآتي بعده.

١٥ ولكن ليست هبة النعمة كمثل الزلّة: فإذا كانت جماعة كثيرة قد ماتت بزلّة إنسان

واحد، فبالأولى أن تفيض على جماعة كثيرة نعمة الله الموهوبة بإنسان واحد، ألا وهو يسوع المسيح.

١٦ وليست الهبة كمثل ما جرّت من العواقب خطيئة إنسان واحد: فإذا كان الحكم على إنسان واحد قد أفضى بالناس إلى الهلاك، فإن هبة النعمة بعد كثير من الزلات أفضت بهم إلى البرّ.

١٧ فإذا كان الموت قد ساد بزلّة إنسان واحد، فبالأولى أن يسود في الحياة بيسوع المسيح وحده أولئك الذين تلقّوا فيض النعمة وهبة البر.

١٨ فكما أن زلّة إنسان واحد جرّت الهلاك على جميع الناس، فكذلك برّ إنسان واحد يأتي جميع الناس بالبرّ الذي يهب الحياة.

١٩ وكما أنه بمعصية إنسان واحد جُعلت جماعة كثيرة خاطئة، فكذلك بطاعة واحد تُجعَل جماعة كثيرة بارّة.

٢٠ وقد جاءت الشريعة لتكثر الزلّة، ولكن حيث كثرت الخطيئة فاضت النعمة.

٢١ حتى انه كما سادت الخطيئة بالموت، تسود النعمة من أجل الحياة الأبدية بربّنا يسوع المسيح».

إن مفتاح هذا النص هو، كما قلنا، الآية ١٨ التي تُظهر هذه الحقائق:

(١) الخطيئة هي سبب الموت (الهلاك). فليس الموت ظاهرة طبيعية، بل هي نتيجة لحكم.

(٢) الخطيئة سبّبها إنسان واحد (آدم) فالموت عمّ الجميع.

(٣) النعمة (البر) تهب الحياة، في حين أن الخطيئة تسبّب الموت.

(٤) النعمة بفضل إنسان واحد (يسوع المسيح) فعمّت الحياة الجميع.

والآية ١٢ تشرح الآية ١٨: «بالخطيئة دخل الموت». لا يقول بولس ان آدم هو الذي أدخل الموت في العالم، ولكن هي الخطيئة التي سبّبته. فالخطيئة هي قوة أشمل وأقدم من آدم، هي قوة موت بغضّ النظر عن آدم نفسه، هي شوكة الموت، أو — بتشبيه سفر التكوين — هي الحيّة التي أغوت آدم وحواء. وآدم قد فتح الباب فدخلت الخطيئة. فليس الموت ظاهرة طبيعية تستحوذ بالانسان وبالحيوان، بقدر ما هو نتيجة لقوة الشر والخطيئة. وبعبارة أخرى، يمكن فهم ذلك — وإن لم يقله بولس صراحةً — على أن الله خلق الانسان بمعزل عن الموت، فلم يكن في تدبيره السابق أن يموت الانسان، بل أن يظل حياً أبداً. ولكن الخطيئة هي التي غيّرت مسار تخطيط الله، فأدخلت عنصراً جديداً وهو الموت. هذا فيما يخصّ الموت الطبيعي.

وما الموت الطبيعي إلّا إشارة إلى موت آخر — وهو أخطر — ألا وهو الانفصال عن الله. هذا هو الموت الحقيقي، الموت الاسكاتولوجي. فنذكر أن الكتاب المقدس يصوّر الإنسان الحيّ بفضل الله الذي يمنّ عليه بالحياة، بحياته. وما الخطيئة إلّا الانفصال عن الله، الانفصال عن منبع الحياة،

وما هي إلَّا الموت، الموت الحقيقي، الموت الاسكاتولوجي.

وفي هذه الآية حقيقة أخرى عندما يقول بولس: «بناءً على ذلك خطئوا جميعاً». فالكلمة التي يستخدمها بولس باليونانية هي eph'hoi التي يمكن تعريبها إمَّا: «لأنهم» خطئوا جميعاً، وإمَّا: بناءً على ذلك خطئوا جميعاً. فرغم أن معظم الترجمات تترجم العبارة: «لأنهم»، إلَّا أن المعنى الذي يفرضه النص هو: «بناءً على ذلك»، أي بناءً على أن الخطيئة دخلت العالم وبالتالي الموت، وبناءً على أن الخطيئة والموت استوليا على الجميع، خطئ الجميع. فليس سبب الموت خطايا البشر (وهذا معنى ترجمة «لأن») بل — كما رأينا — الخطيئة السابقة على البشر التي تَرتّب عليها أن يخطأ البشر بخطاياهم. أو بعبارة أخرى، ليست الخطايا الشخصية هي سبب دخول الموت للعالم، بل الخطيئة السابقة على البشر، قوة الخطيئة، هي السبب. وهذا المعنى مطابق لما نراه عند بولس في غير هذه الآية في مثل روم ٨ / ٢٠ و١ قور ٩ / ١٠ وفل ٣ / ٩ و١ طيم ٦ / ١٧.

وأما الآيتان ١٣ — ١٤، فإنهما تُدخلان عنصراً جديداً: ما هو دور الشريعة التي وهبها الله لشعبه المختار؟ ألم تكن الشريعة هي سبب الخطيئة، إذ لا خطيئة بدون شريعة؟ يردّ بولس بالنفي: ان الخطيئة سابقة على الشريعة، هي ظاهرة شاملة لكل البشرية وليست محصورة في الشعب المختار. وهذا ما قاله بولس في بداية رسالته عندما قال ان الوثنيين: «كانوا شريعة لأنفسهم مع أنهم بلا شريعة، فيدلّون على أن ما تأمر به الشريعة من الأعمال مكتوب في قلوبهم وتشهد لهم ضمائرهم وأفكارهم» (روم ٢ / ١٤ — ١٥). «فالحق» و«صفات» الله و«قدرته الأزلية» و«ألوهيته» لا تنحصر في أهل الشريعة، بل هي «ظاهرة للبصائر في مخلوقاته». وبالتالي «لا عذر لهم» (روم ١ / ٢٠).

والآيات ١٥ — ١٧، اعتماداً على ما سبق، تبيّن تناقض الوضعَين مع آدم والمسيح:

* خطيئة آدم / نعمة المسيح
* الحكم / البرّ
* الهلاك والموت / الحياة.

والآيات ١٩ — ٢١ تعيد ما ورد في ١٢ — ١٤، مع استبدال كلمة «خطيئة» بكلمة «موت»، الأمر الذي يؤكد مرة أخيرة أن الخطيئة ولّدت الموت، والموت يعبّر عن عمل الخطيئة وسلطتها.

وخلاصة القول: ان كان الموت الطبيعي انحلالاً للجسد (كانحلال جسد الانسان أو الحيوان)، إلَّا أنه يشير إلى موت اسكاتولوجي حقيقي، ألا وهو الانفصال عن الله، أي الخطيئة. فالانفصال عن نفس الله المحيية، بالخطيئة، موت للانسان، لأنه انفصال عن مصدر حياته ومنبعها الدائم.

«أين، يا موت، ظفرك؟»

في الفقرة السابقة، أظهرنا صلة الموت بالخطيئة. ونص بولس أوضح لنا جلياً أن المسيح

انتصر على الخطيئة بالبر والنعمة، وعلى الموت والهلاك بالحياة. وهذا ما نريد أن نستفيض فيه في هذه الفقرة.

يتحدث بولس عن أزواج في نصّه المذكور: آدم / المسيح، الخطيئة / النعمة، الحكم / البرّ، الموت / الحياة. فآدم أدخل الخطيئة والموت اللذَين عمَّا البشرية كلها، وهذا ما نسمّيه في اللاهوت «الخطيئة الأصلية». فالانسان يولد مرتبطاً بالخطيئة والموت. ولكن لم يفهم بولس ذلك إلّا انطلاقاً من اختباره للنعمة والحياة اللتَين أتى بهما المسيح. أتى المسيح إلى العالم بدون الخطيئة، فأدخل وضعاً جديداً على البشرية: حالة البرّ والنعمة التي فقدها الإنسان بسبب الخطيئة. خلق الله الانسان في البرّ والحياة، وتسبّبت الخطيئة في أنه أصبح خاضعاً للحكم والموت، وهذا ما خلّصه المسيح منه. انه بدّل وضع الانسان كلياً ونهائياً. ففي حين كانت الحياة البشرية لا تُطاق بسبب الخطيئة — وما يترتّب عليها من بغض الانسان لأخيه[٩] — خلّصها المسيح بموته على الصليب. ويستدعي ذلك بعض الشرح:

١ — أطلق مفسّرو الكتاب المقدس لقباً لاهوتياً على المسيح في أنه «شخصية دامجة» (Corporate personality)، أي أنه يدمج في شخصه مصير البشرية بأجمعها، كما أن ملكاً مثلاً يجمع في شخصه كل شعبه. فآدم هو «شخصية دامجة» في أنه قَبِل الخطيئة فدخلت العالم عن طريقه. والمسيح هو «شخصية دامجة» في أنه أرسى قواعد وضع بشري جديد، أو أعاد إلى البشرية وضعها الأول، كما خلقها الله في البدء، ألا وهو وضع البرّ والقداسة والنعمة والبنوّة. فلا يمكن أن يمتدّ عمل شخص إلى جماعة إلّا إذا كان هذا الشخص يمثّل الجماعة. وهذا ما فعله المسيح[١٠].

٢ — بانتصاره على الخطيئة — في أنه كان بدون الخطيئة، أي لم ينفصل عن الله ولهذا يسمّيه بولس «بكر الخلائق كلّها» — انتصر المسيح على الموت إذ قام ظافراً من الموت — لذلك يسمّيه بولس «بكر الأموات» أو «بكر من قام من بين الأموات» (قول ١ / ١٥، ١٨) — ووهب الحياة الجديدة المبنيّة، لا على الخطيئة، بل على البر والنعمة والمحبة. أو، بعبارة أخرى، ان انتصار المسيح على الخطيئة انتصار على الموت، بقدر ما الخطيئة هي سبب الموت. هو انتصار على الموت الحقيقي الاسكاتولوجي، أي الانفصال عن الله. لذلك يقول بولس، بعد أن بيّن انتصار المسيح على الشريعة والخطيئة والقوى: «الموت آخر عدو يُبيده» (١ قور ١٥ / ٢٤ — ٢٧). فيصرخ صرخة الانتصار، انتصار المسيح: «أين، يا موت، ظفرك؟... فالحمد لله الذي أتانا الظفر عن يد ربنا يسوع المسيح» (١ قور ١٥ / ٥٥ — ٥٧).

٩. في سفر التكوين تلي خطيئة آدم وحواء (أي الانفصال عن الله بعصيان أمره) خطيئة قايين الى هابيل، أي أن الانفصال عن الله يسبّب انفصالاً بين البشر وحقد بعضهم لبعض.

١٠. في الفصل القادم سنعود الى هذه النقطة.

٣ ــ لا يمكن فصل مفهوم «الخطيئة الأصلية» عن مفهوم «النعمة» «والحياة الجديدة». فهما متلازمان، بل ان النعمة هي التي تشرح الخطيئة، لأن محبة الله ورغبته في الخلاص لا تُغلَبان إطلاقاً. لذلك يقول بولس: «حيث تكثر الخطيئة تفيض النعمة» (روم ٥ / ٢١). فخطأ بعض اللاهوتيين أنهم نظروا إلى الخطيئة الأصلية منفصلةً عن النعمة، إلى آدم منفصلاً عن المسيح، إلى الموت منفصلاً عن الحياة...، لكن بولس يتحدّث عنها دائماً معاً[11].

٤ ــ تحدَّث بولس عن انتصار المسيح على الموت ليعزّي أحبّاء الموتى الذين تساءلوا عن مصير الأموات (راجع مثلاً ١ تس ٤ / ١٣ و١٨ و٥ / ١١ و١ قور ١٥): ما هو حالهم يوم مجيء المسيح؟ هل سيكونون في موكب الذين لا يزالون على قيد الحياة (علماً بالاعتقاد بأن المجيء قريب جداً)؟ يردّ بولس: بأن غير المؤمنين لا رجاء لهم في القيامة (١ تس ٤ / ٥ وأفس ٢ / ١٣)، واليهود كذلك (سيراخ ٣٨ / ١٧ و٢٠ ــ ٢١) وان كانت لهم تعزية. وأمّا المسيحيّون فيؤمنون بأن المسيح سيأتي في مجده مع الذين سبق أن «رقدوا» (Koimèsis : ١ تس ٤ / ١٤ ــ ١٧ و١ قور ١٥ / ٢٣ +). وإذا قال بولس ان الراقدين سيسبقون الأحياء في الموكب، فلا يقصد أن أولئك أعظم من هؤلاء، بل يؤكد على أنهم سيكونون مع المسيح ولن يذهبوا إلى الفناء (وهذا كان التساؤل). وذروة كلام بولس هو الفرح العظيم في هذا اليوم (كما رأينا في حديثنا عن المجيء الثاني).

٥ ــ **الخلاصة**: الموت هو تحوُّل من حالة إلى حالة أخرى. ان موت الحيوان هو انحلال لحياته وجسده. أمّا موت الانسان فهو تحوّل من حياته الأرضية إلى الحياة مع المسيح. وكان شعب العهد القديم يرجو قيامة الأموات، لكن المسيح جعل هذا الرجاء حقيقةً وواقعاً.

فللموت معنى: انتصار المسيح على الموت، واشراكه البشرَ في هذا الانتصار. وإن كان الموت حادثاً أليماً دائماً للذي يموت ولأحبائه، إلّا أن الرجاء المسيحي يُرجع هذا الألم إلى الخطيئة التي في البشر ويشدّد على فرح الاتحاد بالمسيح. وبولس، لاختباره قيامةَ المسيح، يفهم الموت بهذا المعنى لأن القيامة تضع المؤمن في «ملء الأزمنة».

تبقّى لنا أن نقدّم بايجاز مفهوم بولس للصليب.

الصليب

لبولس فكر لاهوتي واضح المعالم بشأن صليب المسيح، نلخّصه في ثلاث نقاط:

١١. أظهرنا ذلك جلياً من الناحية اللاهوتية في «سر المصالحة» ــ سلسلة «الايمان والأسرار» ــ الفصل الثامن.

١ — صليب المسيح : في نص مشهور ، ١ قور ١ / ١٧ — ٢ / ٥ ، يوضّح بولس مفهومه للصليب ، ويتركّز حول كلمتين : هو « جهالة » لليونانيين و « عثرة » لليهود. فاليونانيون ، الذين يعتمدون على الحكمة البشرية ، يعتبرون الصليب حماقة. أما بولس فيقلب الآية : «أين الحكيم ؟ ... ألم يجعل الله حكمة العالم حماقة ؟ رأى الله أن يخلّص المؤمنين بحماقة البشارة ... لأن الحماقة من الله أكثر حكمة من الناس ... ما كان في العالم من حماقة فذاك ما اختاره الله ليُخزي الحكماء». وأما اليهود الذين كانوا يعتبرون مسيًا قوياً محرِّراً بالقوة ، فالصليب بالنسبة إليهم ضعف وعثرة. وهنا أيضاً يقلب بولس الآية : «لمَّا كان اليهود يطلبون الآيات ... فإننا ننادي بمسيح مصلوب ، عثار لليهود ... المسيح قدرة الله ... لأن ... الضعف من الله أقوى من الناس ... ما كان في العالم من ضعف فذاك ما اختاره الله ليُخزي القوة». ويُنهي بولس كلامه باعتراف ايماني : «لم أشأ أن أعرف شيئاً وأنا بينكم ، غير يسوع المسيح ، بل يسوع المسيح المصلوب». وقد اقتدى بالمسيح نفسه عندما أعلنه للقورنثيين : «قد مثلتُ بين أيديكم وبي ضعف وخوف ورعدة شديدة ، ولم يعتمد كلامي وبشارتي على أسلوب الاقناع بالحكمة ، بل على ظهور الروح والقوة».

٢ — صليب المسيحي : اختبر بولس إذاً صليب المسيح في رسالته ومن أجل خلاص المؤمنين كالمسيح نفسه. فيقول : «يسرّني الآن ما أعاني لأجلكم ، فأتمّ في جسدي ما نقص من آلام المسيح في سبيل جسده وهو الكنيسة» (قول ١ / ٢٤). وفي نصّ جميل يصف آلام الرسول : ٢ قور ٤ / ٧ — ١٥ [١٢] : «يُضيّق علينا من كل جهة ولا نُحطَّم ، نحار في أمرنا ولا نيأس ، انَّنا مضطهَدون لا مخذولون ، انَّنا مُلقَون إلى الأرض لا هالكون». وكل ذلك تمثّلاً بموت المسيح وحياته ، ولأجل المسيح : «نحمل في أجسادنا كل حين آلام موت المسيح لتظهر في أجسادنا حياة المسيح أيضاً. فإنَّنا ، وإن نكن أحياء ، فما زلنا نُسلَّم إلى الموت في سبيل يسوع لتظهر في أجسادنا الفانية حياة يسوع أيضاً». ولجهاده هذا قيمة خلاصية للمؤمنين على مثال موت المسيح : «الموت يعمل فينا والحياة تعمل فيكم».

٣ — بين الصليب والمجد : ليست الكلمة الأخيرة هي للصليب ، بل للمجد. ولقد ظهرت ملامح ذلك عندما تحدّث بولس عن جهاد الرسول. وفي رسالتيه إلى أفسس وقولسي ، يُظهر إظهاراً أوضح الأزواج : الموت / الحياة ، التواضع / التمجيد ، الآلام / القيامة ، الموت /

١٢. راجع أيضا : ١ قور ٤ / ٩ — ١٥ و٢ قور ٦ / ٤ — ١٠ و١١ / ٢٣ — ٢٩ وروم ٨ / ٣٥ — ٣٦.

المجيء الثاني، الصليب / الانتصار، وبالنسبة إلى الرسول الموت — مع / القيامة — مع المسيح.

فالصليب يستقي معناه، بل وفاعليته ممّا يتبعه من قوة وانتصار ومجد، من حياة وقيامة. فعندما يتحدث بولس عن الصليب أو الآلام أو الموت، يتحدَّث أيضاً عن الحياة والقيامة والمجد...

٤ — **الخلاصة** : وإذا أردنا أن نلخِّص في عبارة فكرَ بولس في الصليب، أمكننا أن نقول ان الصليب يُظهر قوة الله الخلاصية. فالله خلّص العالم بقوة صليب ابنه يسوع المسيح.

الفصل الرابع

سر المسيح

المقدّمة

قادتنا مسيرتنا حتى الآن الى أن نستشف عمل المسيح الخلاصي، كما اكتشفه وتأمّله وتعمّق فيه بولس: من مجيئه الثاني الى قيامته الى موته[1]. وعلينا في هذا الفصل الأخير من فكر بولس عن المسيح أن نحوِّل نظرنا من «عمل» المسيح الى «شخصه»، من «الفعل» الى «الكائن»، من «خلاصه» الى «ألقابه»[2]. أو، بتعبير آخر، علينا أن نتساءل: ما هو «سر» المسيح؟ من هو المسيح؟ ما هي الألقاب التي تعبّر عن شخصه كإله؟...

وسنركّز تحليلنا حول قطبين: علاقة المسيح بالله، علاقته بالبشر.

١. كان في نيّتنا أن نصعد من الموت الى التجسّد والى وجود المسيح قبل التجسد. الّا أن ضيق الوقت يمنعنا من ذلك. على كل حال، لا يسهب بولس في الحديث عمّا قبل الموت، أي عن حياة يسوع الأرضية وتجسّده وما سبقها، لأنه ينظر الى «المسيح بحسب الروح» لا «المسيح بحسب الجسد» (روم ١ / ٣ — ٤ و٩ / ٥). أمّا فيما يختصّ بالتجسد، فهناك «الافراغ» أو «التخلّي» (Kénosis باليونانية) الوارد ذكره في نشيد فيلبي (٢ / ٦ — ١١). غير أن هذا النشيد ليس لبولس، بل للجماعة المسيحية، فضلاً عن أن معظم المفسّرين اليوم يرجّحون أن «الافراغ» يختص بالموت على الصليب، لا بالتجسد. فبولس ينظر الى المسيح من زاوية سر موته / قيامته (وصعوده ومجيئه)، فهذا هو منطلق فكره اللاهوتي.

٢. كان بودّنا أن ندرس أيضاً معنى ألقابه: الرب، المسيح، ابن الله... تلك التي عبّر بها بولس والجماعة المسيحية الأولى عن ألوهيته وصلته بالآب وقصد الآب الخلاصي.

المسيح والله

أظهر بولس بوضوح علاقة المسيح بالله في قوله مثلاً : «هو صورة الله الذي لا يُرى» والصورة هنا دلالة على الشركة في الألوهية ، أي أن المسيح يشترك مع الآب في الألوهية . ويتابع بولس : «فيه خُلق كل شيء... كل شيء خُلق به وله . كان قبل كل شيء وبه قوام كل شيء» (قول ١ / ١٥ — ١٧). فاشترك المسيح في الخلق بطريقة خاصة . لا يقول بولس انه خلق الكون ، تاركاً هذا الفعل للآب ، ولكنه يقول ان الخلق أتمّه الآب «فيه» و«به» و«له» ، ممّا يعني أنه اشترك مع الآب في الخلق ، بل أن الخلق موجّه نحوه : «له». وفي مكان آخر ، يعبّر عن الفكرة نفسها ، مُظهراً تطابق الآب والمسيح : «ليس إلّا اله واحد وهو الآب ، منه كل شيء واليه نحن راجعون ، ورب واحد وهو يسوع المسيح ، به كان كل شيء وبه نحن قائمون» (١ قور ٨ / ٥)[٣] .

وان كان سرّ المسيح يظهر في طبيعته («صورة الله») وفي بدء الخليقة («خلق») ، فإنه يظهر في نهايتها أيضا ، وهذا ما رأيناه في حديثنا عن مجيئه الثاني (١ قور ١٥) ، أو ما يعبّر عنه بولس ، مستنداً الى تعابير كتابية ، عندما يقول مثلاً : «أقامه (الله) من بين الأموات وأجلسه الى يمينه في السموات» (اف ١ / ٢٠) ، أو : «رفعه الله ووهب له الاسم... كيما تجثو لاسم يسوع كل ركبة... ويشهد كل لسان أن يسوع المسيح هو الرب» (فل ٢ / ٩— ١١)...

هكذا يظهر سر المسيح في علاقته الخاصة بالآب ، علاقة الألوهية ، على ثلاثة مستويات : الطبيعة الالهية ، الخلق ، التمجيد (القيامة والصعود والمجيء).

ونتيجة ذلك أن الانسان الذي خلّصه المسيح أصبح هو الآخر على صورة الله ، لا بمعنى «التكوين» فحسب— اذ خلق الله الانسان على صورته (تك ١ / ٢٦— ٢٨)— بل على صورة المسيح خاصة : «... يكونوا على مثال صورة ابنه ، ليكون هذا بكراً لاخوة كثيرين» (روم ٨ / ٢٩) ، أو ، بتعبير آخر : «خلعتم الانسان القديم وخلعتم معه أعماله ، ولبستم الانسان الجديد» (قول ٣ / ٩— ١٠) . فالانسان الجديد هذا هو يسوع المسيح نفسه الذي أصبح من اعتمد به على صورته . ويقول أيضاً بولس : «تخلّقوا بخلق المسيح» (فل ٢ / ٥). فالمسيح يمنح البنوّة الالهية ، وبهذا المعنى يصبح المؤمنون على صورته . الا أن هذه الحالة تستدعي منهم أن يصبحوا ما نالوه بالعماد ، أي أن يصيروا في حياتهم اليومية على صورته .

٣. ان تعليم يوحنا عن «الكلمة» يطابق تعليم بولس ، وان كان بتعابير مختلفة : «... به كان كل شيء ، وبدونه ما كان شيء ممّا كان . فيه كانت الحياة...» (يو ١ / ١+). وبالمثل تعليم كاتب الرسالة الى العبرانيين (الذي كان دون شك من البيئة التعليمية البولسية) : «به أنشأ العالمين. هو شعاع مجده وصورة جوهره ، يحفظ كل شيء بقوة كلامه» (عب ١ / ٢ — ٣).

المسيح والبشر

دخلنا في علاقة المسيح بالبشر. ولكن علينا أن ندقّق النظر في هذه العلاقة. وتتمحور النظرة حول وحدة الكون بالمسيح. فان كان الخلق واحداً لأن الله واحد والمسيح واحد[٤]، فالخطيئة قد شتّتت الخليقة[٥]، وأمّا المسيح فيجمعها في شخصه. وهذا هو قصد الله الأزلي: «يجمع في المسيح كل شيء» (اف ١ / ١٠). ولنحلّل هذا القصد الالهي في وحدة الكون بالمسيح.

دمج المسيح للكون: ان كلمة نشيد أفسس اليونانية هي: Anaképhalaiomai: المسيح يجمع في شخصه كل شيء، ويدمج الخليقة بأجمعها: الكنيسة والقوى، ما في السماء وما في الأرض وما في الجحيم (فل ٢ / ١٠ — ١١ وقول ١ / ١٦ وأفس ٤ / ١٦ وقول ٢ / ١٩).

وقد استخدمها ايريناوس (باللاتينية Recapitulatio)، معبّراً عن أن المسيح ذلّل كل العقبات وسيطر على كل القوى بخلاصه («رد على الهراطقة» ١ / ١٠ / ١)، وكذلك بتجسّده — وان لم تكن هذه الفكرة بولسية — اذ أعاد صورة الانسان المشوّهة الى أصلها الالهي (٣ / ١٨ / ٧)[٦].

المسيح والملء: يستخدم بولس أيضاً كلمة «ملء» (باليونانية Plérôma) في ٧ مقاطع: أف ١ / ١٠ و٢٣ و٣ / ١٩ و٤ / ١٣ وقول ١ / ١٩ و٢ / ٩ وغل ٤ / ٤. ومعنى اللفظة: التكملة، الإتمام، الكليّة، الكل، الملء، الجمع.

وجدير بالذكر أن فكرة «الملء» حاضرة في الفلسفة الرواقية، وتعني وحدة العالم وكرامته. غير أن بولس نصّرها، فليست بالنسبة اليه فكرة عالمية، بل هي فكرة الهية: الله يُنزل الملء الى العالم مروراً بالمسيح، حيث يرتكز عليه هذا الملء.

فجسد المسيح الممجّد[٧] يتركّز فيه الملء: «قد شاء الله أن يحلّ به الملء كله» (قول ١ / ١٩). «فيه يحلّ جميع ملء الألوهية حلولاً جسدياً» (قول ٢ / ٩). فما لم يحدّده بولس في الآية الأولى عن نوعية هذا «الملء»، يحدّده في الآية الثانية، اذ يقول انه ملء الألوهية.

والملء يصل الى البشر. فنحن نمتلئ بالمسيح (اف ٣ / ١٩)، والملء هنا هو غنى الله، حبّه الفائق غير المدرَك. فبوحدة الايمان والمعرفة، نصل

٤. يرمز الكتاب المقدس الى وحدة البشر في الانسان الواحد آدم / وحواء.

٥. يرمز الكتاب المقدس الى التشتيت هذا في قصة «بابل» وتعدّد اللغات. وأمّا اعادة جمع البشرية ففي العنصرة حيث ان اللغات المختلفة لم تعد حاجزاً لوحدة البشر، بل كان كل الحاضرين يفهمون بلغتهم الرسل ومن نالوا معهم الروح القدس.

٦. ثمة تصوير رائع للجمع والدمج هذا، وهو تصوير جسد المسيح وداخله العالم والبشر بأجمعهم، دون الرأس. وسنعود الى تلك النقطة في حديثنا عن الكنيسة كجسد للمسيح.

٧. راجع ما قلناه في الفصل الثاني في «الجسد الممجّد».

الى ملء المسيح الذي يتركّز فيه غنى الله (اف ٤ / ١٣)، فنصبح اذّاك «مملوئين» فيه (قول ٢ / ١٠)، ومن معرفة ارادة الله (قول ١ / ٩) ومن الروح (اف ٥ / ١٨).

ويختصّ الملء بالكنيسة كجسد المسيح. ففيها يصبح المسيح «كل شيء في كل شيء» (اف ١ / ٢٣)، وهي تصبح موضع تركيز هذه القوة، وتتحقّق فيها هذه القوة.

وأخيراً، يعمّ ملء المسيح الكون كله (اف ٤ / ١٠) فقد صالحه مع الله.

المسيح البكر: وفي فكر بولس تعبير آخر يعبّر عن ارتباطه بالبشر، وهو أنه البكر (باليونانية Prototokos). ولقد سبق أن مرَّ علينا هذا اللقب: بكر الخلائق والأموات. فليس المراد بالبكر أن المسيح هو الأول من سلسلة، ولكنّ لهذا اللقب معنى مطلقاً. فالمسيح «بكر الخلائق» (قول ١ / ١٥) بمعنى أنه قبلها كلها، لا بالتسلسل التاريخي التوقيتي، بل المطلق: هو في بداية مطلقة تسبق الخلق مطلقاً، بل انه هو الخالق كما رأينا: به وفيه خُلقت الخليقة. فالمعنى الصحيح هو أنه منشئ الخلق، سببه وعلّته[8].

والمسيح «بكر من قام من بين الأموات» (قول ١ / ١٨) «وبكر لاخوة كثيرين» (روم ٨ / ٢٩)، لا بمعنى أنه أول من قام، فيليه أمثاله في القيامة، بل بمعنى أنه منشئ هذه الحالة الجديدة. هذا الوضع الجديد، هذا الخلق الجديد، هو سببه وعلّته: القيامة والحياة الجديدة، دون الشريعة والخطيئة والقوى والموت، كما سبق أن أظهرنا.

وأخيراً، ان المسيح هو بكر القائمين اسكاتولوجياً في قيامة الأموات، بمعنى أنه في مجيئه الثاني يُخضِع كل شيء له (١ قور ١٥). فكل شيء «خُلق له» وقصد الله أن «يجمع كل شيء فيه» — ويرأس القائمين، أي يُدخلهم في القيامة والحياة: «حياتكم محتجبة مع المسيح في الله» (قول ٣/ ١٧)، عند الآب الذي يصبح «كل شيء في كل شيء».

هذه هي المستويات الثلاث التي يميّزها بولس عندما يقول ان المسيح هو «البكر»: البكر في البداية (الخلق) والنهاية (المجيء الثاني وقيامة الأموات)، إلّا أنه منذ الآن بكر الذين يحيون حياته الجديدة: فالمسيح بكر في الماضي والحاضر والمستقبل.

الخلاصة

اذا أردنا أن نلخّص تعليم بولس عن «المسيح»، أمكننا أن نقول: «حيث يكون المسيح، يكون الله»، بمعنى أن المسيح يُظهر الله. وبالمثل: «حيث يكون الله، يكون المسيح»،

٨. كل عبارة وكل تشبيه وكل صورة... هي غير مناسبة للتعبير عن عالم الالهيات. فكلها بشرية تحاول أن تعبّر عن السر الالهي، ولذلك فهي غير مناسبة. ولكن الانسان يحتاج الى التعبير البشري عن الالهيات، مهما عجز تعبيره هذا عن أداء المعنى العميق والحقيقي والكلّي.

بمعنى أن الله يتعامل مع البشر ويكشف لهم نفسه بواسطة المسيح. وهذا يعني أن «المسيح هو الله»، رغم أن هذه العبارة لم ترد حرفياً في رسائل بولس، ولكن مدلولها حاضر في كل رسائله.

وأمّا مسيرة بولس اللاهوتية، فقد انطلقت من الخلاص الذي أتى عن يد المسيح —من موت وقيامة ومجيء ثانٍ— واستقرت الى أن هذا المسيح المخلّص هو ابن الله، ظهور الله للبشر، وسيط بين الله والبشر. وأمّا مسيرتنا اللاهوتية اليوم فتنطلق من ألوهية المسيح لتصل الى نتائجها من خلاص البشر بفعل الألوهية في الموت / القيامة. فهناك لاهوت تصاعدي (بولس والانجيليون الازائيون)، وهناك لاهوت تنازلي (يوحنا، نحن). وكلا اللاهوتين صحيحان وهما متكاملان.

القسم الثاني

الكنيسة في رسائل بولس

في حديثنا عن اهتداء بولس على طريق دمشق، ألمحنا الى أنه أدرك الصلة الوثيقة القائمة بين المسيح والكنيسة، عندما قال له يسوع: «لماذا تضطهدني؟... أنا يسوع الذي تضطهده» (رسل ٩ / ٤ — ٥). فاختبار بولس للمسيح قاده الى التعمُّق في الكنيسة، حتى انه اعتبرها «جسد المسيح» واعتبر المسيح «رأسها»، وراجت هذه التسمية، كما أن العلاقة بين المسيح وكنيسته استحوذت على فكره اللاهوتي حتى انه قال في أواخر حياته: «ان هذا السر لعظيم وأعني به سر المسيح والكنيسة» (اف ٥ /٣٢)، فانه يعتبر هذه العلاقة سرّاً (Musterion).

ويتجلّى هذا السر في تسمية أخرى، اذا اعتُبر ان الكنيسة هي عروس المسيح وان المسيح هو عريسها: «يزفّها الى نفسه كنيسة سنية، لا شائبة فيها ولا تغضّن ولا ما أشبه ذلك، بل مقدّسة بلا عيب» (اف ٥ / ٢٧).

ولقد تعمّق بولس أيضاً في العلاقة بين الكنيسة والروح القدس. فليست الكنيسة مرتبطة بالمسيح فحسب، بل بروحه أيضاً. ويعبّر بولس عن هذه الحقيقة في تعبيره أن الكنيسة «هيكل الله»، اذ ان «روح الله حالّ» فيها (١ قور ٣ / ١٦ — ١٧).

هذا مختصر حديث بولس عن الكنيسة (Ecclésialogie). سنحلّله في فصلين، أولهما عن علاقة الكنيسة بالمسيح، وثانيهما عن علاقتها بالروح القدس. ولكننا نحاول أن نفهم هنا معنى كلمة «الكنيسة»، وقد استخدمها بولس أكثر من غيره[1].

١. ٣ مرّات في انجيل متى و٢٣ مرّة في أعمال الرسل، ٦٢ مرّة في رسائل بولس و٢٩ مرة في سائر الرسائل و٢٠ مرة في الرؤيا.

ليست الكنيسة اجتماع أشخاص يجتمعون لتوافق نظرهم مثلاً، أو لاقتناعهم بفكرة معيّنة، أو لتحقيقهم لمشروع ما... بل الكنيسة هي «مدعوّة» من قِبَل الله للاجتماع (راجع مثلاً ١ قور ١ / ٩ و١ تس ٢ / ١٢ وفل ٣ / ١٤ وروم ٨ / ٢٨ — ٣٠). فلفظة «كنيسة» تعريب للكلمة اليونانية Ekklésia المشتقّة من الفعل اليوناني Kaleim، أي «دعا»، والاسم Klésis، أي «الدعوة». فالكنيسة هي، في العرف اليوناني، «جماعة المدعوّين» دعوة سياسية، أي الجماعة التي تجتمع لإبداء رأيها في الأمور السياسية.

والمسيحية — بولس خاصةً — استخدمت كلمة «كنيسة» اليونانية ونصّرتها، فأصبحت: الجماعة التي يدعوها الله، لا جماعة سياسية كاليونانيين، بل جماعة دينية يجمعها الله.

والترجمات الأجنبية للفظة Ekklésia تبيِّن غنى الكلمة وعمقها. فاللاّتينية قد استخدمت لفظة Ecclesia ومنها الفرنسية Eglise بالمعنى الأول، أي «الجماعة المدعوّة»، وأمّا الألمانية فلفظة Kirche [٢] والانجليزية Church من الكلمة اليونانية Kyriaké (من كلمة Kyrios الرب)، أي «ما للرب»، والكلمة تُدلي بالمعنى الثاني، أي الجماعة التي يدعوها الرب، التي يملكها الرب.

فالكنيسة هي في نهاية الأمر الجماعة التي يدعوها الرب ويمتلكها، ويقول يسوع بهذا المعنى: «وهبتَهم لي من بين العالم. كانوا لك فوهبتهم لي» (يو ١٧ / ٦).

فالكنيسة هي ملك الرب حقاً والتبادل بين الآب والابن في الروح. هي حقاً جماعة بمعنى أن اختيار الله اختيار لشعب، لجماعة، لا لأفراد منفصلين بعضهم عن بعض. وكذلك فإن خلاصه خلاص جماعي (راجع مثلاً المجمع الفاتيكاني الثاني: «نور الأمم» رقم ٨ — ٩). ويقول اقليمنضس الاسكندري في هذا الصدد في كتابه «المربّي»: «كما أن ارادة الله هي مدينة واسمها العالم، هكذا قصده هو خلاص البشر واسمه الكنيسة» (١ / ٦ / ٢٦ : ٢). وعندما يختار الله أشخاصاً — أمثال ابراهيم وموسى والأنبياء ومريم والرسل... — فمن أجل الشعب الذي يرسلهم اليه، لا من أجلهم فردياً. لذلك يدعو بطرس المؤمنين «الشعب المختار» (١ بط ٢ / ٩)، ويذكّر بولس المؤمنين بأنهم «مدعوّون من قبل يسوع المسيح» (روم ١ / ٦+). «مختارون عن يد المسيح» (اف ١ / ٤)، «قدّيسون بالدعوة» (١ قور ١ / ٢)... وتتم هذه الدعوة كَنَسيّاً جماعياً. فالمسيحي مسيحي في الشركة مع المسيحيين، في شركة الايمان، لا بمعزل عن المسيحيين، عن الكنيسة.

٢. في الألمانية كلمة أخرى للدلالة على الكنيسة: Gemeinde، أي «الجماعة»، والمقصود بها الكنيسة المحلية، الحقيقة الداخلية لشركة المؤمنين وتحقيقها في مكان معيَّن. وأما كلمة Kirche، فالمقصود بها الكنيسة الجامعة، الشاملة.

الفصل الخامس

الكنيسة جسد المسيح

تقودنا دراسة رسائل بولس الى التمييز بين اتّجاهين في حديثه عن الكنيسة كجسد المسيح. أمّا الاتجاه الأول فيختص بما نستطيع أن نسمّيه اليوم «الكنيسة المحليّة»، أي كنيسة قورنتس ورومة وغيرهما من الكنائس.

وأما الاتجاه الثاني فيختص بما يسمّيه قانون الايمان واللاهوت المسيحي «الكنيسة الجامعة». فقد حدث تطوّر في عرض بولس لسرّ الكنيسة. ففي مرحلة فكره الأولى، نظر الى الكنيسة من الوجهة الواقعية الملموسة، الى الكنيسة في هذه المدينة أو تلك. ووسّع آفاقه تدريجيا — في مثل قولسي وافسس — ونظر اليها نظرة أكثر شمولاً، الى الكنيسة كجسد للمسيح الذي هو رأسها. وندرس كل اتجاه على حدة.

تكوين الكنيسة المحليّة: يوجّه بولس رسائله الى مثل «كنيسة الله بقورنتس» (١ قور ١ / ٢ و٢ قور ١ / ١). ويمكن تلخيص فكر بولس فيما يختص بتكوين الكنيسة في هذه المرحلة (في قور وروم خاصة) في ثلاثة أسس تكوّن الكنيسة كجسد للمسيح:

١ — العماد: ليس العماد لدى بولس طقساً كما درجت العادة لدى رهبان قمران وكما مارسه يوحنا المعمدان. وليس هو فعلاً قانونياً يدخل به شخص في جماعة (كالرهبان الاسينيين) أو حتى في شعب (كالختان عند اليهود)، بل ليس العماد توبة للملكوت فقط، كما دعا اليه المعمدان ويسوع نفسه في بداية رسالته. بل العماد الذي يكوّن الكنيسة جسداً للمسيح هو أولاً ارتباط بالمسيح، توبة اليه، «تغيير الفكر» بالنظر اليه، بحسب معنى كلمة «ميتانويا» اليونانية — اذ ان يسوع المسيح هو الذي يغفر الخطايا ويوحّد المعمّد بموته / قيامته.

ونحن نعرف أن العماد في بداية المسيحية كان «باسم يسوع» (رسل ٢ / ٣٨ و٨ / ١٦ و١٠ / ٤٨ و١ قور ١/ ١٣ — ١٥ وغل ٣ / ٢٧ وروم٦ / ٣)، أي أن المعمَّد يصبح مِلكاً ليسوع فيكون ليسوع سلطة عليه. ويشترك في حياته، في موته / قيامته، كما يشترك في بنوّته، وكذلك في روحه.

هذا هو معنى تطوّر صيغة العماد: من العماد «باسم يسوع» الى العماد «باسم الآب والابن والروح القدس» (متى ٢٨ / ١٩). فالصيغة الأخيرة هذه — وقد فرضت نفسها في نهاية الأمر، خلافاً للصيغة الأولى — تتضمن الاشتراك في حياة الثالوث («باسم الآب والابن والروح القدس»)، انطلاقاً من حياة يسوع نفسه («باسم يسوع»). ونحن نعرف قيمة «الاسم» عند اليهود.

فالعماد يجعل الانسان «خلقاً جديداً»، «إنساناً جديداً»، ويمنحه «حياة جديدة» باشتراكه في موت / حياة المسيح (٢ قور ٥ / ١٧ وروم ٦ / ٣ — ٦ و١١ وغل ٣ / ٢٧ وطي ٣ / ٥. راجع ١ بط ١ / ٣ و٢٣ ويو ٣ / ٣ — ٥). فالمسيح وحده هو الذي يخلّص (رسل ٤ / ١٢)، ومن اعتمد به وقد آمن به يخلص (مر ١٦ / ١٦). فللعماد بُعد اسكاتولوجي، أي أنه يحقّق ملكوت الله على الأرض، اذ يتمّم خلاصه في شخص المسيح السيّد (رسل ٢ / ٣٦).

وليس الارتباط بالمسيح العنصر الوحيد الذي يكوّن الكنيسة كجسد له. بل العماد يوحِّد المؤمنين فيما بينهم ويجعلهم جسداً واحداً، يجعلهم الكنيسة بتمام معنى الكلمة، أي «الجماعة» التي تؤمن بيسوع المسيح: «اعتمدنا في روح واحد لنكوّن جسداً واحداً» (١ قور ١٢ / ١٣، ١٢ — ٢٧، ٦ / ٥ — ١٧). فلا يعرض الله خلاصه على البشر فردياً، بل جماعياً، داخل جماعة هي جماعة ابنه، جسد ابنه، «جماعة اسكاتولوجية» - كما يسمّيها اللاهوتيون. فلا يولَد الانسان داخل هذه الجماعة، بل يصبح عضواً منها وفيها عن طريق العماد[1]. فهناك فعل ملموس من قبل الجماعة ومن قبل الانسان نفسه (أو من يمثّله في حالة عماد الأطفال) لدمجه فيها وليصبح عضواً في جماعة المسيح، في جسده. فلأن المعمَّد يشترك في حياة المسيح — كما رأينا — فانه يشترك في جسده وهو الكنيسة، ولأنه مختوم باسمه، فإنه يصبح عضواً من أعضاء جماعته. ولأنه يتّحد بموته / قيامته، فإنه يلتحق بجماعته الفصحية. ولأنه ينال روحه القدوس، فإنه يصبح حجراً حياً في الهيكل الروحي للجماعة.

وبالتالي يتّحد الأعضاء فيما بينهم كجسد واحد: «لا يهودي ولا يوناني، لا عبد ولا حر، لا رجل ولا امرأة، لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع» (غل ٣ / ٢٨ و١ قور ١٢ / ١٣).

للعماد اذاً قطبان لا يتجزآن. انه يدمج في شخص المسيح، ويدمج بالتالي في جسده وهو

١. خلافاً للمعتقد الاسلامي حيث ان كل انسان يولَد مسلماً الى أن يصبح مسيحياً أو يهودياً...

الكنيسة. فمن الخطأ اعتبار أحد العنصرين دون الآخر.

٢ — عشاء الرب: ان عشاء الرب أيضاً يكوّن الكنيسة المحليّة، أي يجعلها جسد المسيح. فعبارات بولس في هذا الصدد واضحة كل الوضوح: «أليست كأس البركة التي نباركها مشاركة في المسيح؟ أليس الخبز الذي نكسره مشاركة في جسد المسيح؟ فنحن جسد واحد لأنه ليس هناك الا خبز واحد، ونحن على كثرتنا جسد واحد لأننا نشترك في هذا الخبز الواحد» (١ قور ١٠ / ٢٦+).

فالاشتراك في جسد المسيح ودمه يكوّن جسده حقاً، كنيسته، كنيسته في قورنتس، في رومة... فلعشاء الرب بُعدان، أمره أمر العماد: يوحِّد بالمسيح ويوحِّد المشتركين بعضهم ببعض. وهذا ما نراه الآن بالتدقيق.

يعبّر بولس عن الاتحاد بالمسيح باستخدام كلمة «مع» (باليونانية: Sun): نصلب معه، نتألّم معه، نموت معه، نُدفَن معه، نقوم معه، نحيا معه، نصعد معه... (روم ٦ / ٤+ و٢ قور ٧ / ٣ وغل ٢ / ٩ واف ٢ / ٥ — ٦ وقول ٢ / ١٢ — ١٣ و٢ طيم ٢ / ٢...). هكذا تتّحد الكنيسة، بل وتتكوّن الكنيسة المحليّة باشتراكها في الجسد والدم (١ قور ١٠ / ١٦ — ٢١)، وتصبح واحداً مع المسيح، كما يصبح الزاني واحداً مع الزانية (١ قور ٦ / ١٢+). فان كانت الكنيسة تصير بالعماد جماعة المسيح، فإنها تظل وتنمو ككنيسة بالعشاء الربّاني.

وبناء على الاتحاد بالمسيح، يتّحد المشتركون فيما بينهم. فهم لا يشتركون «من» خبز واحد، بل «في» خبز واحد، لذلك يصبحون واحداً في الجسد والدم نفسه (١ قور ١٠ / ١٧). وهذا ما يُظهره لوقا في أعمال الرسل، عندما يصف الجماعة قلباً واحداً (رسل ٢ / ٤٢ و٤ / ٣٢+). فالاتحاد بالمسيح أساس الاتحاد بين المشتركين، أساس «الشركة» بينهم (باليونانية Koinonia)، فهم يصبحون في الجسد والدم جسداً واحداً — وهو جسد المسيح —، يصبحون أعضاء كثيرين للجسد الواحد (١ قور ١٢ / ٢٧ وروم ١٢ / ٥). فكما أن العماد يكوّن الجسد ويوحّد المعمَّدين، فكذلك عشاء الرب ينمّي ويُظهر وحدتهم. ولذلك يشدّد بولس على أنه لا يجوز أن يكون أي انشقاق بين الاخوة عند مشاركتهم في الجسد والدم، والّا يستدعي هذا الانشقاق الدينونة، لأنه يمسّ الجسد الواحد، الجسد الذي يأكلونه، الجسد الذي يكوّنونه، جسد المسيح في نهاية الأمر (١ قور ١١ / ١٧ — ٣٤)[٢].

٣ — مواهب الروح القدس: كان بولس يبني تأسيس الكنيسة وتكوينها ونموّها على شخص المسيح، لكنه كان يبنيها أيضاً كجسد المسيح على عمل الروح القدس الذي بمواهبه يبني الجسد. فيستخدم من أجل ذلك صورة الجسد الذي يتألّف من أعضاء مختلفة تكوّن جسداً واحداً.

٢. أوصى يسوع بترك القربان والمصالحة قبل تقدمته.

فكنيسة المسيح واحدة مع تعدّد أعضائها ومواهبهم: «كما أن الجسد واحد وله أعضاء كثيرة، وأن أعضاء الجسد كلها على كثرتها ليست الا جسداً واحداً، فكذلك المسيح[٣]. اننا قبلنا المعمودية[٤] جميعاً في روح واحد لنكون جسداً واحداً، أيهوداً كنّا أم يونانيين، عبيداً أم أحراراً، واننا ارتوينا من روح واحد» (١ قور ١٢ / ١٢ — ١٣).

في الفصل الثاني عشر من ١ قور ومن روم، يبيّن بولس أن المؤمنين مدعوّون أعضاء الجسد — «جسد للمسيح» كما يقول (ولا «جسد المسيح») ١ قور ١٢ / ٢٧ — وخليقة الروح القدس، فيكوّنون بالروح جسداً واحداً فيما بينهم.

وخلاصة جولتنا في الكنيسة المحليّة أن بولس يبنيها على ثلاث قوائم: العماد والعشاء والمواهب، أو، باختصار، على أساسين: على المسيح والروح القدس. المسيح في «الأسرار» والروح القدس في «المواهب». فالأسرار والمواهب تبني الجسد وتنمّيه وتمنحه الكيان. وتظهر ثمار هذا التأسيس في المحبة والوحدة بين أعضاء الجسد. فهم واحد بالمسيح، وهم واحد فيه (روم ٨ / ١ و٢ قور ٥ / ١٧ وغل ٢ / ١٧)، أي أنهم يندمجون في جسده مع الآخرين (غل ٣ / ٢٨ و١ / ٢٢ وروم ١٢ / ٥ و١٦ / ٧ و١١ و١ قور ١ / ٣٠ و١ تس ٢ / ١٤).

بل يقول بولس أكثر من ذلك، عندما يوجّه كلامه الى القورنثيين: «أنتم جسد للمسيح» (١ قور ١٢ / ٢٧)، مشيراً الى تطابق المسيرة والمصير بين المسيح وكنيسته، كما أن القبيلة أو الشعب هو داخل مسيرة الرئيس ومصيره.

هذه هي الكنيسة المحليّة بحسب تحديد بولس الذي يستخدم تعبير «جسد للمسيح». وأما لوقا الذي لا يستخدم هذا التعبير، فانه يبني الكنيسة المحليّة على الأسس نفسها: التعليم («تعليم الرسل») والأسرار («كسر الخبز» و«العماد») وحياة الشركة («قلباً واحداً ونفساً واحدة») في علاقة وثيقة مع «الرسل» (رسل ٢ / ٤٢ — ٤٧ و٤ / ٣٢+)[٥].

تكوين الكنيسة الجامعة: ان كانت التساؤلات التي وجّهها القورنثيون أو الرومانيون الى بولس تعود الى شأن الكنيسة المحليّة، كنيسة الله في هذه المدينة أو تلك، جسد المسيح في هذه الجماعة أو تلك، فان تساؤلات كنيستي قولسي وأفسس مختلفة. فكانت اشكاليتها كالآتي:

ما مصير الكون بأجمعه والعالم بأسره من الخلاص الذي أتمّه يسوع المسيح؟ هل خلّص الخليقة كلها فعلاً؟ فالاشكالية مختلفة تماماً عنها في قورنتس أو رومة أو غلاطية أو غيرها من الرسائل الأولى. ان اشكالية الرسائل الكبرى هذه هي

٣. وكذلك جسد المسيح، أي الكنيسة.
٤. وكذلك العشاء الربّاني.
٥. «الرسل» و«التعليم» يعتبرهما بولس ضمن «المواهب» التي يهبها الروح القدس. وهذه العناصر الثلاثة هي التي يكلّف بها اللاهوت الأسقف بوظيفته التعليمية والتقديسية والتنظيمية، وهي في الواقع الأدوار الثلاثة التي يقوم بها الروح القدس في الكنيسة.

العلاقة الواقعية بين أعضاء الجسد الواحد، وقد ردّ عليها بولس مبيّناً أن الكنيسة المحلية مبنيّة على المسيح والروح القدس، الأمر الذي يفرض على أعضاء الجسد أن يكونوا واحداً في وفاق ومحبة. وأما رسائل الأسر — ومنها قول واف — فتدور حول علاقة المسيح المخلّص الكوني بجسده الشامل، كنيسته «الجامعة»، بحسب تعبير قانون الايمان واللاهوت المسيحي. يضيف بولس هنا الى تعبير «الجسد» العلاقة التي تربطه بالمسيح «الرأس». هكذا تتركّز الرسالتان المذكورتان حول العلاقة بين الرأس والجسد. ولا يعني الجسد هنا الكنيسة المحليّة، جماعة هذه المدينة أو تلك، بل الجسد الشامل للمؤمنين بأجمعهم. ونظرة بولس هذه تكمّل النظرة الأولى. نحلّلها الآن بدقة لأهميتها القصوى في فهم الكنيسة كجسد للمسيح.

يصرّح بولس بأن موت المسيح على الصليب حَدَثٌ خلاصي للكون كله، كما أن المسيح قد خلق الكون كله[٦]:

«بكر الخلائق كلها.
ففيه خُلق كل شيء،...
كل شيء خُلق به وله.
كان قبل كل شيء وبه قوام كل شيء،...
بكر من قام من بين الأموات
لتكون له الأولية في كل شيء.
فقد شاء الله أن يحلّ به الكمال كله.
وبه شاء أن يصالح كل موجود
سواء في الأرض وفي السموات.
فهو الذي حقق السلام بدمه على الصليب».

وبالمثل نجد في نشيد أفسس (١ / ٣ — ١٤) دور المسيح في الخلق وفي الخلاص، مما يختص بالكون كله. ويتابع بولس قائلاً ان الله

«أقامه من بين الأموات
وأجلسه الى يمينه في السموات
فوق كل صاحب رئاسة وسلطان وقوة وسيادة
وفوق كل اسم يسمّى به مخلوق
لا في هذا الدهر فقط،
بل في الدهر الآتي أيضاً،
وجعل كل شيء تحت قدميه»
(اف ١ / ٢٠ — ٢٢).

هكذا يُظهر بولس سيادة المسيح على كل شيء سواء أكان في الخلق أو في الخلاص. غير أنه لا يقول ان الكون هو جسد المسيح، بل الكنيسة هي جسده. ففي أفسس يقول: «جعله رأساً للكنيسة، وهي جسده وملء ذاك الذي يسع كل شيء في كل شيء» (اف ١ / ٢٣). «المسيح رأس الكنيسة التي هي جسده وهو مخلّصها. كما تخضع الكنيسة للمسيح... كما أحبّ المسيح الكنيسة وضحّى بنفسه من أجلها ليقدّسها ويطهّرها بماء الاستحمام... ان هذا السر لعظيم، وأعني سر المسيح والكنيسة» (اف ٥ / ٢٣ — ٣٣).

٦. نشيد قولسي (١ / ١٥ — ٢٠) ينقسم الى قسمين: قسم يُظهر سيادة المسيح كخالق وقسم آخرَ يُظهر سيادته كمخلّص.

وفي قولسي يقول: «هو أيضاً رأس الجسد، أي رأس الكنيسة» (قول ١ / ١٨). «أتمّ في جسدي ما نقص من آلام المسيح في سبيل جسده الذي هو الكنيسة» (قول ١ / ٢٤).

فيخص بولس بالكنيسة —لا بالكون— تسمية جسد المسيح، لأن دورها هو أن تكون الأداة —كجسد له— للمصالحة الكونية النهائية والخضوع الكوني له، وذلك عن طريق البشارة بالانجيل ورسالة الكنيسة في العالم (قول ١ / ١٨ و٢٤ و٢ / ١٩ و٣ / ١٥ واف ١ / ٢٢+). وهكذا تنمو الكنيسة، ينمو جسد المسيح على الأرض (قول ١ / ٦ و٢٣— ٢٩ و٢ / ١٩ واف ٢ / ٢١+ و٤ / ١١ و١٥+).

وبناء على هذه الصلة الوثيقة بين الرأس والجسد، ينبغي لأعضاء الجسد أن يكونوا واحداً في المحبة: «هناك جسد واحد وروح واحد، كما أنكم دُعيتم دعوة رجاؤها واحد. وهناك رب واحد وايمان واحد ومعمودية واحدة، واله واحد أب لجميع الخلق...» (اف ٢ / ٢— ٧ و٤ / ١١— ١٣).

والوحدة لا تتناول المؤمنين كأفراد فحسب، بل كجماعات أيضا، وهنا يظهر البُعد الجامعي والشمولي للخلاص وللكنيسة: «انه سلامنا، فقد جعل من الجماعتين جماعة واحدة وهدم بجسده الحاجز الذي يفصل بينهما... ليخلق في شخصه من هاتين الجماعتين... انساناً جديداً ويصلح بينهما وبين الله، وقد قضى على العداوة بصليبه، لتصيرا جسداً واحداً... في روح[7] واحد» (اف ٢ / ١٤— ١٨. راجع قول ٣ / ١١).

وللتعبير عن هذه المحبة المبنيّة على شخص المسيح، يصف بولس الحب والخضوع بين الرجل والمرأة، شأنهما شأن المسيح والكنيسة، : كالرأس والجسد (اف ٥ / ٢٢— ٣٣ و١ قور ٦ / ١٢— ٢٠ و١١ / ٢) حتى ان حب الرجل للمرأة يصبح آية لحب المسيح لجسده وهو الكنيسة.

وفي رسالته الى قولسي أيضا، يحثّ بولس المسيحيين على المحبة (٣٠ / ١٢— ٤ / ١).

وهكذا نرى أن الكنيسة «الجامعة»، بارتباطها برأسها— وهو المسيح— وبعمل الروح القدس، تصبح حقاً جسد المسيح الذي يتّحد فيه جميع المؤمنين.

بين الكنائس المحلية والكنيسة الجامعة: واذا حاولنا أن نختم حديثنا بالعلاقة بين الكنيسة المحليّة والكنيسة الجامعة، وجدنا أن بولس يشدّد في الأولى على العلاقة بين المؤمنين بناءً على علاقتهم بالمسيح، لكنه يشدّد في الثانية على العلاقة بين المسيح والكنيسة، كالعلاقة بين الرأس والجسد، بما يترتّب عليه من وحدة ومحبة بين المؤمنين. فهناك تكامل بين النظرتين. الأولى أكثر تركّزاً على علاقة الجسد بأعضائه، وهو أمر واقعيّ يعني الكنيسة

٧. هنا أيضاً، في الكنيسة الجامعة، يظهر دور الروح القدس— راجع أيضاً اف ١ / ١٣— ١٤.

المحلية في أعضائها، والثانية على علاقة الجسد بالرأس، وهو أمر أكثر شمولية، ويعني كيان الكنيسة وأساسها. وكنيسة المسيح هي الاثنان معاً.

فالكنيسة الجامعة الوحيدة تظهر وتحضر في الكنيسة المحلية التي تتّحد بالكنائس الأخرى، لأن كل كنيسة محليّة محتاجة الى الكنائس الأخرى (١ قور ١٢ / ٢١ وراجع رؤ ٣ / ١٧).

والكنيسة الجامعة الوحيدة تفترض الكنائس المحليّة ولا وجود لها الّا في الكنائس المحليّة.

والنظرتان متكاملتان كما قلنا. الّا أن الكنائس الأرثوذكسية والبروتستانتية شدّدت في لاهوتها وفي واقعها الكنسي على النظرة المحليّة، والكنيسة الكاثوليكية على النظرة الجامعة. وأمّا حقيقة الكنيسة، جسد المسيح، فتدمج النظرتين دون تعارض أو تباين بينهما.

لاهوت جسد المسيح

ننتقل الآن من النظرة «الكتابية»، التي استمدّت من الكتاب المقدس أهم مفاهيمها، الى النظرة «اللاهوتية» التي تبغي توضيح مفهوم تعبير بولس عن الكنيسة «جسد المسيح» ومضمونه. وسنبدأ بعرض معنى مفهوم الرأس والجسد، ليتسنّى لنا أن نحلّل لاهوت جسد المسيح الذي يتلخّص في حضور المسيح لكنيسته، وهذا ما يقودنا الى اعتبار اتحاد المسيح بكنيسته من جهة، والتمييز بينهما من جهة أخرى.

المفهوم الأنثروبولوجي للرأس والجسد

١ — الرأس: عندما يستخدم بولس كلمة «رأس» للدلالة على المسيح في علاقته بالكنيسة وهي جسده، يتأثر بعقليّتين مختلفتين:

في العقلية اليهودية الساميَّة، الرأس («روش» بالعبرية) هو الذي «يغذّي» الجسد (اف ٥ / ٢٩)، كما أن به «إحكام الجسد كله والتحامه، والفضل لجميع الأوصال التي تقوم بحاجته، ليتابع نموّه بالعمل الملائم لكل من الأجزاء وينبني بالمحبة» (اف ٤ / ١٦). فالعقلية الساميَّة تنظر الى الرأس في علاقته الوثيقة بالجسد.

وأما العقلية اليونانية والرومانية فتنظر الى الرأس (باليونانية Kephalé) كالقائد (باليونانية Arkon وباللاتينية Dux) الذي يمشي في الأمام ويقود، فيخضع له الجيش ويتبعه. وهكذا فإن «المسيح الرأس» هو الذي يُخضِع كنيسته ويقودها. ويستعين بولس بهذا المعنى، لا بالمعنى اليهودي فقط، في مثل حديثه عن العلاقة بين الرجل والمرأة، وهما — كما رأينا — آية للعلاقة بين المسيح والكنيسة: «المسيح رأس الكنيسة التي هي جسده وهو مخلّصها. وكما تخضع الكنيسة للمسيح...» (اف ٥ / ٢١ — ٢٤). الّا أن هذا الخضوع لا يعني اطلاقاً أي إذلال أو تسلّط من الرأس على الجسد، بل هو مبنيّ أساساً على المحبة (اف ٥ / ٢١ + وقول ٣ / ١٨ — ٤ / ١).

٢ — الجسد: وعندما يستخدم بولس كلمة «جسد» (باليونانية Soma) للدلالة على

الكنيسة، فإنه يتأثر هنا أيضا بالعقليّتين المذكورتَين:

فالجسد في العقلية اليهودية هو حقيقة الشخص، هو ظهوره للخارج، هو عمله وعلاقاته. فباستخدامه كلمة «جسد» بهذا المعنى، يريد بولس أن يقول إن الكنيسة هي حضور المسيح للعالم في أنها حقيقته وظهوره وعمله وعلاقاته في عالم البشر. وهذا ما رأيناه، عندما قلنا ان الكنيسة، برسالتها وبشارتها، تعمل من أجل سيادة المسيح في الكون والعالم كله.

وأمَّا في العقلية اليونانية، فالجسد هو وحدة أعضاء مختلفة مرتبطة فيما بينها. فالدولة مثلاً تكوّن جسداً من الأعضاء الذين يكوّنونها، والكون يكوَّن من أجزائه، والمقالة من مقاطعها، والكرمة من أغصانها... وورد عند الفلاسفة الرواقيين ان «الجماعة» (Ekklesia) هي جسد مكوّن من أعضاء كثيرة. ولقد رأينا هذا المعنى في تشبيه بولس الخاص بالجسد والأعضاء (مثلاً ١ قور ١٢).

حضور «المسيح الرأس» «للكنيسة الجسد»: بناءً على ما سبق، بوسعنا أن نصرِّح بأن «المسيح الرأس» حاضر «للكنيسة الجسد»، اذ انه ليس في الماضي (منذ ألفَي عام) ولا في المستقبل (في مجيئه الثاني)، بل في حاضر كنيسته، كما أن الرأس حاضر دائماً أبداً لجسده، وإلَّا لا يحيا الجسد بدونه.

و«المسيح الرأس» حاضر لكنيسته في الأسرار خاصةً ولاسيّما في العماد والافخارستيا. ولهذا السبب تعتبر الكنيسة المحلية — كنيسة بلد معيّنة أو كنيسة رعيّة معيّنة — أنها جسد المسيح الحقيقي، كما تعتمد عليه الكنائس الشرقية خاصةً، وكما تأثّرت به الكنيسة الغربية بفضل تجديد تفسير الكتاب المقدس وبمشاركة الكنائس الشرقية الكاثوليكيّة في المجمع الفاتيكاني الثاني.

فحضور «المسيح الرأس» «لكنيسته جسده» يُدلي بأنهما لا يتجزآن أبداً (اف ١ / ٢٢ وقول ١ / ١٨+)، اذ ان الجسد «مع» الرأس دائماً، والكنيسة «مع» المسيح في حياته وموته (اف ٢ / ٥+ وقول ٢ / ١٢+ و٣ / ١)، علماً بأن الرأس هو المنبع من جهة والهدف من جهة أخرى لنموّ الجسد (اف ٤ / ١٥ وقول ١ / ١٨ و٢ / ١٩). فالرأس أعظم من الجسد، اذ ان المسيح عن يمين الآب فوق جميع القوى، ويُخضع لنفسه كل الأشياء (اف ١ / ٢٠ — ٢٢ و٥ / ٢٤ وقول ١ / ١٨ و٢ / ١٠ و١٤+ و١٩).

هكذا نرى وحدة النظرتَين المتكاملتَين: الكنيسة المحلية والكنيسة الجامعة. فكلتاهما تُظهران العلاقة الوثيقة، بل الوحدة غير المنفصلة بين «المسيح الرأس» و«الكنيسة الجسد»، ذلك الجسد الشخصي للمسيح (كما كان جسده الأرضي جسده الشخصي) الذي يوحّده به الروح القدس كما يوحِّد أعضاء الجسد فيما بينهم (١ قور ٦ / ١٥ و١٩).

التمييز بين «المسيح الرأس» و«الكنيسة الجسد» وبين العريس والعروس: كنا قد أظهرنا الوحدة القائمة بين المسيح والكنيسة، لكنهما

متميّزان. انّهما متّحدان غير منفصلين، لكنهما مختلفان. ولقد غاب ذلك بعض الشيء عن بعض اللاهوتيين الكاثوليك، عندما استخدموا تعابير لاهوتية مثل «الكنيسة امتداد للمسيح». أو «الكنيسة تجسّد مستديم». أو «الكنيسة آية الخلاص»... فعابه البروتستانت عليهم تخوّفاً من عدم التمييز الكافي بين المسيح والكنيسة. فأمّا أوغسطينس، فيتحدّث عن «المسيح الكلّي، الرأس والأعضاء»، معبّراً هكذا عن الوحدة والتمييز في آن واحد. وثمّة تعبيران يُدليان بمعنى التمييز. الأول هو الرأس / الجسد، والثاني هو العريس / العروس، وكلاهما كتابيّان. نحلّلها من هذه الزاوية.

* الرأس / الجسد: يركّز بولس في رسالتيه الى قولسي وأفسس على «المسيح الرأس»، أكثر منه على «الكنيسة الجسد» أو على العلاقة بين الأعضاء، كما رأينا. فما يهمّه هو العلاقة بين الرأس الجسد، من حيث أن الرأس هو العامل في الجسد ومن خلاله، وهو الذي يقوده. فالمسيح هو السيّد والكنيسة تبدو جماعة المؤمنين به وتتّجه نحوه (اف ٤ / ١٥). كما أنه هو المبدأ، مبدأ نموّ الجسد (قول ٢ / ١٩ و١ / ١٨)، اذ ان «الانسان الكامل»، حيث تتناسق كل الأعضاء وتنمو، هو المسيح (اف ٤ / ١٣)، فينمو الجسد نحو الرأس وينمو نحو الداخل بنموّ الايمان والمعرفة والمحبة في الآلام، حيث يكتمل ما ينقص من آلام المسيح (قول ١ / ٢٤)، وينمو نحو الخارج بالبشارة والاعلان، بحيث تصبح الكنيسة ملء الذي يملأ الكل في الكل (اف ١ / ٢٣)، فتنمو. لا بنموّها الشخصي. بل كلّما نما المسيح في تاريخ البشرية بالبشارة والاعلان. هكذا يبدو لنا جليّا ان الكنيسة الجسد تخضع للمسيح الرأس وتخدمه بكرازتها.

* العريس / العروس: وثمة تعبير كتابي آخر يُدلي بالتمييز نفسه بين المسيح والكنيسة، يستخدمه بولس ويوحنا.

لهذا التعبير جذور في العهد القديم، عند هوشع وارميا وحزقيال خاصةً، وهو يجمع بين طاعة الشعب العروس لاله العريس، وبين الحب المتبادل.

وفي الأناجيل، يطلق يسوع على نفسه لقب العريس (متى ٩ / ١٥)، فهو العريس الذي تنتظره العذارى وهنَّ صورة للكنيسة (متى ٢٥ / ١ — ١٣). يوحنا يسمّي المعمدان صديق العريس (يو ٣ / ٢٩)، وفي سفر الرؤيا يصوّر عرس الحمَل والعروس مزيّنة لعريسها وهي أورشليم السماوية (رؤ ٢١ / ١+ و٩ و١٩ / ٧ — ٨). والعروس مع الروح القدس تنادي عريسها: تعال (٢٢ / ١٧+).

وأما بولس فيقول ان المسيح هو الذي يطهّر عروسه ويزيّنها لنفسه بماء العماد[8]، حتى انها

٨. جرت العادة في الشرق — والى اليوم في قرانا — بغسل العروس وتزيينها قبل عرسها.

باتّحادها به تصبح أُمّاً خصبة (اف ٥ / ٢١+ و٢ / ١٤). ورأينا بولس يشرح اتحاد المسيح بعروسه، لكن عبارة العريس / العروس قد توحي بأنهما مختلفان، اثنان في واحد وواحد في اثنين. والكنيسة خاضعة لعريسها خضوع الحب (كما رأينا ذلك في العهد القديم أيضاً)[٩].

وخلاصة كلامنا أن الاتحاد بين المسيح والكنيسة يفترض التمييز بينهما، فهما لا يتجزآن ولا ينفصلان، الَّا أنهما يتميّزان ويختلفان. ليس هناك اختلاط ولا امتزاج ولا تطابق، بل وحدة، اذ ان الاتحاد لا يُلغي الفرق. هناك اذاً اتحاد في ازدواج وازدواج في اتّحاد.

ملحق: الجسد السرّي: في عيد الرسولَين بطرس وبولس، يوم ٢٩ يونيو ١٩٤٣، أصدر البابا بيوس الثاني عشر رسالة بابوية بعنوان «الجسد السرّي»، كرّس فيها تسمية الكنيسة بهذا اللقب. ولهذه التسمية تاريخ قديم:

١ — لا ترد هذه التسمية في العهد الجديد، بل وردت عناصرها عند بولس، اذ انه يميّز في حديثه عن جسد المسيح بين ثلاثة أجساد (ان صحّ هذا التعبير):

* الجسد على الصليب حيث إن موت المسيح عليه حَدَثٌ خلاصي[١٠].

* الافخارستيا وهي جسد الرب (١ قور ١١) حيث يصبح موت المسيح خصباً مثمراً.

* الكنيسة كجسد المسيح من جهة وعلاقتها به كسرّ من جهة أخرى (اف ٥ / ٣٢)، وهي الموضع الذي يثمر فيه موت المسيح ويخصب.

غير أن جسد المسيح واحد لا ثلاثة. وأمّا حقيقة هذا الجسد فثلاثية المضمون.

٢ — أطلقت كنيسة الآباء صفة «سرّي» على الافخارستيا، لا على الكنيسة، وأمّا الكنيسة فأطلقوا عليها تسمية «جسد روحي» (اقليمنضس الاسكندري). وهذا هو المعنى الذي يفهمه اليوم الأرثوذكس عندما يسمعون تسمية «الجسد السرّي».

٣ — أطلق لاهوت العصور الوسطى صفة «سرّي» على الكنيسة كجسد للمسيح له علاقة سريّة به (اعتماداً على اف ٥ / ٣٢).

٤ — اللاهوت الكاثوليكي، مع البابا بيوس الثاني عشر، كرّس التعبير «الكنيسة الجسد

٩. يستدعي كلام بولس على واجبات الزوجين (اف ٥ / ٢١+) تفسيراً دقيقاً حتى لا نستنتج منه أوّلية الرجل على المرأة، فإن النص المشار إليه يقول عكس هذا الكلام السطحي. يطالب بولس المرأة بالخضوع لزوجها، لكنه يطالب جميع الناس بدون استثناء بالخضوع بعضهم لبعض (٢١ — ٢٤)، بل انه يطالب الرجال بأكثر ممّا يطالب به النساء: الحب والتضحية والاهتمام بزوجتهم، ويذكّرهم بأنّ عليهم أن يتركوا أهلهم لاتّباع امرأتهم (ولا تترك المرأة أهلها لاتّباع زوجها) (٢٥+). فالمطلوب من الرجال أقسى من المطلوب من النساء. لو عرف الرجال ذلك قبل زواجهم، لما تزوّجوا!...

١٠. نذكّر أن بولس لم يعرف يسوع «بحسب الجسد»، بل المسيح «بحسب الروح»، وكل ما أراد أن يعرفه عن حياته الأرضية هو «يسوع المسيح المصلوب» (١ قور ٢ / ٢).

السرّي» بناءً على لاهوت العصور الوسطى من جهة، ومن جهة أخرى لمقاومة تيّار فكري فلسفي ولاهوتي متأثّر بالفيلسوف الألماني كانط (القرن الثامن عشر) كان ينظر الى الكنيسة على انها جسم اجتماعي أو سياسي فحسب، متجاهلا سريّة العلاقة بشخص المسيح.

٥ — وقع الفكر المعاصر في فخّ مضاد للأول، اذ أصبح المفهوم الدارج للتعبير (وان لم يكن المفهوم الذي قصده البابا بيوس الثاني عشر) أن الكنيسة غير مرئية، داخلية، مستترة، ذات علاقة فردية لا جماعية، روحية لا اجتماعية مع المسيح. لذلك لم يستخدمه الدستور العقائدي عن الكنيسة في المجمع الفاتيكاني الثاني الا مرَّة واحدة (رقم ٧)، مستعيضاً عنه بالتعبير الكتابي «شعب الله».

الفصل السادس

الكنيسة والروح القدس

المقدّمة

بعد أن ظهرت لنا الكنيسة جسد المسيح وعروسه في فكر بولس اللاهوتي، نصوّب نظرنا في هذا الفصل إلى الروح القدس، وسيتبيّن لنا أنها هيكله المقدّس (الفقرة الأولى) وأنه يقدّسها (الفقرة الثانية) وأنه يؤسّسها بالمواهب الروحية (الفقرة الثالثة).

الكنيسة هيكل الروح القدس

إن العلاقة الوثيقة القائمة بين الكنيسة والروح تتجلّى في وصف بولس بأن الكنيسة هي هيكل الروح القدس. ولندرس أولاً المعنى الكتابي لهذه العبارة.

في العهد القديم، كان الهيكل بأورشليم مبنياً على صخرة أصبحت رمزاً للصلابة والمتانة (أش ٢٨ / ١٦) ورمزاً للعثرة أيضاً بالنظر إلى غير المؤمنين (أش ٨ / ١٤). وبعد الجلاء، أصبحت الصخرة حجر الزاوية (مز ١١٨ / ٢٢).

وأما في العهد الجديد، فيقول يسوع ان جسده هو الهيكل الجديد (يو ٢ / ٢٠) وانه هو الصخرة (متى ٢١ / ٤٢ +). ولقد شبَّه الذين يسمعون كلامه بمن يبني بيته على صخرة (متى ٧ / ٢٤)، كما أطلق على سمعان اسم صخرة («كيفا» بالآرامية) يبني عليها كنيسته (متى ١٦ / ١٨). وبطرس نفسه يدعو المؤمنين إلى أن يكونوا «حجارة حيّة... لبناء بيت روحاني» على مثال المسيح «الحجر الحيّ» (١ بط ٢ / ٤ — ٦).

وأما بولس فيقول: «أجسادكم هيكل الروح القدس» (١ قور ٦ / ١٢ — ٢٠). «انكم هيكل الله وإن روح الله حالٌّ فيكم» (١ قور ٣ / ١٠ — ١٧). «نحن هيكل الله الحيّ» (٢ قور ٦ / ١٦).

يستخدم بولس تشبيه البنيان، مبيّناً أن المسيح هو الأساس الذي عليه بنى بولس وأبلّس. والمراد تشبيه بولس هذا ما نستطيع أن نسمّيه «الكنيسة المحلية»، كما رأينا أنه يتحدّث عنها فيما يختص بجسد المسيح. وثمة أيضاً ما بوسعنا أن نسمّيه «الكنيسة الجامعة» في مثل كلامه على اليهود والوثنيين: «لنا به جميعاً سبيل إلى الله في روح واحد... أنتم... من أهل بيت الله، بُنيتم على أساس الرسل والأنبياء، وحجر الزاوية هو المسيح يسوع نفسه، لأن به يحكم كل بناء ويرتفع ليكون هيكلاً مقدساً في الرب، وبه أنتم أيضاً تُبنَون معاً لتصيروا مسكناً لله في الروح» (اف ٢ / ١٨ — ٢٢).

في هذا النصّ تظهر وحدة الكنيسة المتمثّلة في وحدة الشعبين اليهودي والوثني. والكنيسة مبنية، لا على أساس بولس أو أبلّس أو غيرهما، بل على الرسل والأنبياء جميعاً، والذي يلحم البناء ويُحكمه هو المسيح نفسه، ويتم كل ذلك في الروح الواحد.

وإذا تساءلنا ما هو المعنى اللاهوتي لتشبيه الهيكل، وجدنا أن الكنيسة ليست بهيكل دخل فيه الروح القدس، بل ان الروح كوّنها كهيكل. فإذا قارنّا الكنيسة بالعظام اليابسة (حز ٣٧)، حيث أن العظام عاد إليها مظهرها إلّا الروح، ثم دعا النبيّ الروح فدخل فيها فأحياها، رأينا أن الكنيسة تختلف عنها تماماً، لأنها لا وجود لها بدون الروح. فلا كيان ولا حياة لها بدونه. الكنيسة هي سكنى الروح حقاً، هيكله المقدس. فهو بالتالي يسبقها دائماً.

فالروح القدس يجعلها تؤمن بيسوع المسيح وبالآب: «من لم يكن فيه روح المسيح فما هو من خاصته» (روم ٩ / ٨ و ١ قور ١٢ / ٣). «نحن الذين لهم باكورة الروح نئنّ في الباطن، منتظرين التبنّي وافتداء أجسادنا» (روم ٨ / ٢٣). والروح يجعل الكنيسة ترجو «المجد الذي سيتجلّى فينا» (روم ٨ / ١٨ +)، كما أنه يجعلها تحيا المحبة (١ قور ١٣). فالروح يسبق الكنيسة دائماً، وهي تخضع له دائماً. الروح يأتي إلى نجدة ضعفها ويئن فيها، وهي تدعه يعمل فيها بحرية.

الكنيسة المقدّسة

يقرّ قانون الايمان بأن الكنيسة «مقدّسة». فالله — والروح القدس، وهو الروح «القدّوس»، — هو الذي يقدّسها.

الله المقدِّس: إن منطلق تقديس الكنيسة هو أن الله قدُّوس. هذا ما اختبره النبي أشعيا: «قدوس، قدوس، قدوس» (٦ / ٣). ولأن الله قدّوس، فكل ما هو له مقدَّس:

«تكونون لي مملكة أحبار وشعباً مقدَّساً» (خر ١٩ / ٦). فالشعب مقدّس والكهنة، والهيكل وأورشليم والأرض... كل ما يملكه الله مقدَّس من فيض قداسته، أي أنه من جهة مُفرَز، موضوع على جانب، مختلف عن الباقي، ومن جهة أخرى طاهر. وفي سائر الأديان، تبدو فكرة الطهارة أوّلية، بل هي الجانب الأساسي للقداسة.

وأما في المسيحية، ففكرة الفرز هي الأولى، بل المعنى العميق للقداسة: «ليسوا من العالم، كما

أني لستُ من العالم». فيسوع مفروز، وليس هو «من» العالم، ولكنه «في» العالم، وكنيسته على صورته: «لا أسألك أن تُخرجهم من العالم» (يو ١٧ / ١٤ — ١٦ و١٥ / ١٩). فعندما يسمّي بولس المسيحيين «القدّيسين» — وهذه التسمية شائعة لديه ولدى الكنيسة الأولى — فإنه لا يقصد شيئاً آخر سوى أنهم مفروزون. وعندما يصف بطرس الكنيسة بأنها «كهنوت مقدّس»، «أمة مقدّسة، شعب اصطفاه الله» (١ بط ٢ / ٥ — ٩)، لا يعني معنى مختلفاً عن هذا الفرز. وفي كل ذلك هو الله الذي يقدِّس، الذي يفرز. فكلمة «مقدَّس» التي تصف الكنيسة والمؤمنين في العهد الجديد هي دائماً اسم مفعول (مقدَّس)، لا اسم فاعل («مقدِّس»)، فاسم الفاعل هو الله والله وحده. ولنعمّق هذه النظرة بتمييز الأقانيم الالهية الثلاثة:

١ — **الآب**: إن الآب هو منبع القداسة: «قدّسكم إله السلام نفسه تقديساً تاماً» (١ تس ٥ /٢٣، وراجع روم ٦ / ١٩ و٢٢). والآب هو مثال هذه القداسة. في العظة على الجبل، يقول يسوع: «كونوا كاملين كما أن أباكم السماوي كامل» (متى ٥ / ٤٨). يردّد بطرس كلمة يسوع هذه: «كما أن الذي دعاكم هو قدّوس، فكذلك كونوا أنتم قديسين في سيرتكم كلّها» (١ بط ١ / ١٥ +). والآب يعلن في المسيح قصده في قداسة البشر: «اختارنا قبل إنشاء العالم لنكون عنده قديسين بلا عيب في المحبة» (اف ١ / ٤)[1]. «ان مشيئة الله انّما هي قداستكم» (١ تس ٤ / ٣).

٢ — **يسوع المسيح**: إن المسيح أيضاً يقدِّس لأنه «روح القداسة» (روم ١ /٤)، و«قدّوس الله» (مر ١ / ٢٤). «قُدِّسوا في المسيح يسوع» (١ قور ١ / ٢). «غُسِلتم، بل قُدِّستم، بل بُرِّرتم باسم ربنا يسوع المسيح وبروح الهنا» (١ قور ٦ / ١١).

ويتم هذا التقديس بالعماد (١ قور ٦ / ١١ ويو ٣ / ٥) وبالافخارستيا (١ قور ١٠ / ٢٦ ويو ٦ / ٢٢ +). هكذا يقدِّس المسيح كنيسته: «أحبَّ المسيح الكنيسة وضحّى بنفسه من أجلها، ليقدّسها ويطهّرها بماء الاستحمام...» (اف ٥ / ٢٥ — ٢٧)[2]. هذا والمسيح هو أيضاً الوسيلة التي يستخدمها الآب لتقديس كنيسته: «أنتم بفضل (الآب) في المسيح يسوع الذي صار لنا بفضل الله حكمة وبِرّاً وقداسة وفداء» (١ قور ١ / ٣٠). بل المسيح هو القدوة للقداسة: «تخلّقوا

١. في هذه الآية وفي رسالة بطرس الأولى (١ / ١٣+) وفي صلاة يسوع الكهنوتية (يو ١٧)، تظهر ملامح التعليم المسيحي في الكنيسة الناشئة، المركّز، على ما يبدو، على وصيّتين: القداسة والوحدة — المحبة.

٢. كثيراً ما يتبع التطهيرُ التقديسَ في العهد الجديد، فهما متميّزان خلافاً لما كان في اليهودية. فالنظرة اليهودية لا تخلو من النظرة الخُلقية، فكم بالأحرى في الأديان الأخرى. وأما في المسيحية فالخُلُقي نتيجة للّاهوتي.

بخُلُق المسيح» (فل ٢ / ٥). وهذا ما فعله بولس في حياته، طالباً إلى أبنائه أن يفعلوا بالمثل: «اقتدوا بي كما أقتدي أنا بالمسيح» (١ قور ١١ / ١ وراجع ١ تس ١ / ٦). ولقد ميَّز آباء الكنيسة — أمثال اوريجينس واوغسطينس — ثلاث مراحل للتقديس بالمسيح:

* التجسّد حيث اتّحد بالطبيعة البشرية.
* الفداء حيث اتّحد بالكنيسة، وذلك بالايمان والمحبة.
* الاسكاتولوجيا حيث سيتّحد بالبشرية في المجد، وذلك بالرجاء.

٣ — **الروح القدس**: إن كان الآب والمسيح يقدّسان، فالروح القدس يحقّق هذا التقديس في الكنيسة، لأنه الروح القدس. فثمرة الروح القدس هي القداسة (روم ٥/ ٥ و٦/ ١٢ + و٢٢ وغل ٥ / ٢٢).

والله الآب يستخدمه للتقديس، كما يفعل مع يسوع المسيح: «الله اصطفاكم منذ البدء ليخلّصكم بالروح الذي يقدّسكم» (٢ تس ٢ / ١٣). وهذا ما ردّده آباء الكنيسة، فيعرّف باسليوس الروح القدس بأنه: «منبع التقديس الذي لا ينبض». وكما أنه حلّ على يسوع في العماد، كذلك يسكن في الكنيسة هيكله فيقدّسها. ويظهر هذا التقديس في أنه مرتبط بغفران الخطايا، إذ ان المسيح القائم «نفخ في (التلاميذ) وقال لهم: خذوا الروح القدس: من غفرتم لهم خطاياهم تُغفر لهم» (يو ٢٠ / ٢٢ — ٢٣). فهو يقدّس في أنه يغفر الخطايا ويهدي إلى «الحياة الجديدة»، حياة يسوع المسيح، «الانسان الجديد»[٣].

وإذا قارنّا عمله التقديسي بعمل المسيح، رأينا أن المسيح يقدّس الطبيعة البشرية والكنيسة، وأمّا الروح فيحقّق ذلك في الأشخاص: «كأنّي بهم منصهرون في جسد واحد، ولكن منقسمون إلى شخصيات» (كيرلس الاسكندري). هكذا يتكامل عملها التقديسي في سبيل تحقيق قصد الآب التقديسي: «غُسِلتم، بل قدِّستم، بل بُرِّرتم باسم ربنا يسوع المسيح وبروح الهنا» (١ قور ٦ / ١١).

إن الثالوث بأكمله يقدِّس الكنيسة والأشخاص، بل البشرية بأجمعها لأنه الثالوث القدّوس، الثالوث الأقدس[٤].

الكنيسة ومواهب الروح القدس

الظاهرة الكنسية للمواهب: إن الكلمة اليونانية Kharisma تعني «هبة مجّانية» وأصلها Kharis أي «نعمة». ومن المعروف لدى اليونانيين أن الامبراطور كان يمنح لجنوده Kharisma، أي مبلغاً إضافياً على مرتّبهم، دون أي حقّ لهم، بل بفيض منه. هذه هي «مواهب» الروح القدس: هبة ونعمة مجانية منه للكنيسة.

٣. نرى هنا بوضوح كيف أن التطهير والطهارة هما ثمرة التقديس، أي أن الخُلُقي وليد اللاهوتي، وليس هما على المستوى نفسه.

٤. لا معنى لقولنا: الثالوث «المقدّس» (بفتح الدال كاسم مفعول).

وتظهر مواهب الروح القدس في العهد القديم عند الأنبياء خاصة (١ مل ١٨ / ١٢ و٢٢ / ٢٨ وحز ٣ / ١٢). غير أن كنيسة العنصرة قد اختبرتها كاملة. فنجد المواهب ترافق الرسل والخدام في أعمال الرسل، بل الكنيسة كلّها في مثل قورنتس وكنائس بولس عامةً. وقد وعد بها يسوع المسيح نفسه في آخر ظهور له بحسب رواية مرقس: «الذين يؤمنون تصحبهم هذه الآيات: فباسمي يطردون الشياطين، ويتكلّمون بلغات مختلفة... ويضعون أيديهم على المرضى فيتعافون» (مر ١٦ / ١٧ — ١٨). هكذا نرى أن المواهب كانت ظاهرة كنسيّة في الكنيسة الناشئة بحسب وعد يسوع المسيح. وقد ظهرت هذه المواهب منذ حلول الروح على التلاميذ الرسل يوم العنصرة عندما «أخذوا يتكلّمون بلغات غير لغتهم، على ما منحهم الروح القدس أن ينطقوا... فلمّا انطلق هذا الصوت، اجتمع الناس وقد أخذتهم الحيرة، لأن كلاً منهم كان يسمعهم يتكلمون بلغته. فدهشوا وتعجّبوا...» (رسل ٢ / ٤ — ٧).

هذه هي موهبة «الألسنة» بحسب التعبير الدارج. ونراها موهبة معروفة تمارسها الكنيسة الناشئة ممارسة عادية مألوفة. وهذا شأن سائر المواهب، فلا يمكن القول ان المواهب ظاهرة استثنائية أو غير عادية أو هامشية. بل هي ظاهرة كنسية بتمام معنى الكلمة. ومن هنا تساؤلنا عن كنيسة اليوم. ولكن. قبل الردّ على هذا السؤال. علينا أن نتعمّق في فهم المواهب.

تعدّد المواهب[٥]: يصنّف بولس المواهب أكثر من مرة: ١ قور ١٢ / ٨ + و٢٨ + وروم ١٢ / ٦ واف ٤ / ١١. وأما بطرس فمرةً واحدة: ١ بط ٤ / ١١. ونجمع اللوائح فيما يلي:

* الرسالة
* النبوّة
* التعليم
* الوعظ
* الخدمة
* الادارة والرئاسة والرعاية
* المعجزات والقدرة على شفاء المرضى
* الاسعاف والعطاء وأعمال الرحمة
* الايمان
* اللغات[٦]
* ترجمة اللغات
* الحكمة
* المعرفة
* التمييز ما بين الأرواح
* وفوق كل هذه المواهب: المحبة[٧].

٥. ان «المواهب الروحية»، التي منبعها الروح القدس، مختلفة عن «المواهب الطبيعية» التي منبعها الآب. فقد تكون المواهب الروحية لا صلة لها اطلاقاً بالمواهب الطبيعية، وقد تكون الاثنتان واحدة.

٦. هناك فرق غير واضح عند بولس بين «التكلّم» باللغات الموجّه الى الجماعة، و«الصلاة» باللغات الموجّهة الى الله. لا يسعنا هنا أن نشرح كل موهبة على حدة.

٧. هناك موهبة «الدموع» غير الواردة في العهد الجديد، بل مارسها آباء البريّة الشرقيون خاصةً.

وحدة المصدر والهدف: المواهب كثيرة ومختلفة كالأعضاء المختلفة في الجسد الواحد (١ قور ١٢ / ١٢ +)، إلّا أن منبعها واحد وهو الروح القدس: «إن المواهب على أنواع، وأما الروح فواحد... هذا كله يعمله الروح الأحد نفسه، موزّعاً مواهبه على كل واحد. كما يشاء» (١ قور ١٢ / ٤ — ١١).

فمصدر المواهب واحد، يهبها لكل أعضاء الجسد بحرية كاملة مطلقة كما يرى. والواقع أنه يهبها لأجل «بناء جسد المسيح» (اف ٣ / ١٢). فهدف المواهب هو أن تنال الكنيسة بها «بنيانها» (١ قور ١٤ / ٥ و١٢). ليست لأجل الأفراد، بل هي للجماعة.

لذلك سبق لنا أن قلنا مراراً ان الكنيسة تتأسّس على المسيح والروح القدس، على الأسرار المقدّسة من جهة والمواهب الروحية من جهة أخرى. فكل كنيسة ينقصها أحد هذين القطبين لا تستفيد من جميع الوسائل التي يمنحها الله لأجل بنيان الكنيسة. لقد اعتمدت بعض كنائس الاصلاح على المواهب فحسب دون الأسرار، في حين أن الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية تعتمد أساساً على الأسرار فحسب دون المواهب. الحق يقال ان هذه الكنائس عرفت دائماً في تاريخها المواهب في بعض أعضائها، ولا سيّما القدّيسين منهم. غير أن المواهب ممنوحة للجميع، لجميع أعضاء جسد المسيح، من علمانيين واكليرس دون تمييز. لذلك يكرّر بولس توصيته لأهل قورنتس[٨]: «تشوّقوا إلى المواهب العظمى... تشوّقوا إلى المواهب الروحية... اطلبوا أن يتوافر نصيبكم منها لبنيان الكنيسة» (١ قور ١٢ / ٣١ و١٤ / ١ و١٤ و١٢)، الأمر الذي يدل على أهميتها في بنيان جسد المسيح، في حياة الكنيسة، سواء أكانت الكنيسة المحلية (١ قور وروم) أو الجامعة (اف). فليست المواهب وسيلة يمكن الاستغناء عنها، بل هي ضرورية، تأسيسية، أساسية لحياة جسد المسيح ونمو رسالته.

بين الكنيسة الناشئة وكنيسة اليوم: يتبادر إلى ذهن الكثيرين أن عصر المواهب قد انتهى، فكانت ضرورية في بداية المسيحية لنشر الانجيل. أمّا اليوم فلا داعي لها. ونجد مثل هذا القول لدى أوغسطينس مثلاً في شأن موهبة اللغات، حيث يقول ان المسيح معروف الآن (في القرن الخامس) فلا داعي لمثل هذه المواهب[٩].

إن هذه النظرة خاطئة — في نظرنا — لسببين أولها أن لا شيء في العهد الجديد يبيّن أن المواهب

لذلك ليست المواهب المذكورة في سبيل الحصر، فالروح القدس له حرية مطلقة لوهب مواهب جديدة وفقاً لمصلحة الكنيسة.

٨. انتقدهم بولس لسببين: أولها لأن ممارستهم المواهب كانت بدون نظام ووحدة ووفاق، وثانيها لأن محبتهم غير كاملة.

٩. لا يميّز أوغسطينس بين «التكلّم» باللغات الذي قد لا يكون ضرورياً و«الصلاة» باللغات التي هي كلام الروح في المؤمن موجّه الى الله.

قد انتهى زمانها وأنها لنشأة الكنيسة فقط. فكلام بولس ولوقا ومرقس وبطرس يرجّح لنا أنها ضرورية، كما أن الأسرار ضرورية. فكما لا يظن أحد أن عصر الأسرار قد انتهى، فكذلك ما الذي يسمح لأولئك أن يؤكدوا أو يظنّوا أن عصر المواهب قد انتهى؟ ان نظرتهم هذه لا تستند إلى أي نص من الكتاب المقدس. قد يدّعي بعضهم أن الكنيسة — الغربية والشرقية — عاشت قروناً طويلة دون ظاهرة ممارسة المواهب. فليس هذا الادّعاء مسنوداً إلى شيء، فربما لأنها لم «تتشوّق» إليها، فلم تعمل بتوصية بولس الرسول.

وأما الخطأ الثاني في اعتبار عصر المواهب قد انتهى، فيعود إلى عدم الدراية بأن ثلاثة أرباع البشرية ليست مسيحيّة اليوم، بل إن المسيحيين أنفسهم بمسيس الحاجة إلى معرفة المسيح والانجيل. فكأني بنا اليوم، في القرن العشرين، — كما كانت الكنيسة الناشئة — أمام ظاهرة عدم الإيمان بالمسيح، بل والالحاد والمادية واللامبالاة الدينية... فالأعمال البشرية لا تكفي اطلاقاً لاعلان يسوع المسيح للعالم، لأن الرسالة تفوق المقدرة البشرية. لذلك عاد الروح القدس يفيض مواهبه على كنيسته لأجل بنيانها، لأجل اعلان يسوع المسيح. فكما كان بولس يقول لأهل قورنتس:

«لم آتكم لأبلّغكم شهادة الله بسحر البنيان أو الحكمة... لم يعتمد كلامي وبشارتي على أسلوب الاقناع بالحكمة، بل على ظهور الروح والقوة، كيلا يستند ايمانكم إلى حكمة الناس، بل إلى قدرة الله» (١ قور ٢ / ١ — ٥)، كذلك اليوم، لم يعد الكلام والأعمال والحكمة البشرية من أساليب الاقناع لاعلان يسوع المسيح وبشارة الخلاص وبنيان جسد المسيح. فالعالم محتاج إلى «ظهور الروح والقوة... وقدرة الله» ليقتنع. لذلك فإن كنيسة القرن العشرين في مسيس الاحتياج إلى مواهب الروح القدس[١٠]. فالكنيسة كلّها «مواهبية» (كاريسماتيكية)، لا فئة أو مجموعات منها. ان جسد المسيح كلّه «مواهبي»، لأن الروح القدس يبني جسد المسيح، كنيسة المسيح، بمواهبه[١١].

وإذا نظرنا إلى الكنائس الوطنية المختلفة، وجدنا كل واحدة منها تتميّز بمواهب خاصة لتحيا القداسة ولتقوم بالرسالة في بيئتها السياسية والاجتماعية، الحضارية والثقافية...

فإذا نظرنا إلى الكنيسة القبطية، وجدنا أن الروح القدس يخصّها بثلاث مواهب تستأثر بها: موهبة الاستشهاد في عصر الاضطهادات الرومانية، وموهبة الحياة الرهبانية في عصر الترف

١٠. هذا ما يحياه. كاشارة وعربون، «التجديد المواهبي (الكاريسماتيكي) بالروح القدس» في جميع الكنائس.

١١. وكذلك بثماره، فثمار الروح هي نتيجة «الحياة الجديدة»، حياة «الانسان الجديد»: «أما ثمر الروح فهو: المحبة، الفرح، السلام، طول الأناة، اللطف، دماثة الأخلاق، الأمانة الوداعة، العفاف... ان الذين هم خاصة المسيح قد صلبوا جسدهم وما فيه من أهواء وشهوات» (غل ٥ / ٢٢ — ٢٤).

والبذخ والانحراف بعد الاضطهادات. وموهبة الثبات في الايمان في عصر الاسلام[١٢]. واليوم، يهب الروح القدس مواهبه لكل كنيسة بحسب احتياجاتها لتقديسها. فعلى سبيل المثال، يهب كنيسة أمريكا اللاتينية موهبة مكافحة الظلم السياسي والاجتماعي والاقتصادي بروح نبوية. ممَّا يقود بعض المسيحيين إلى السجون والمعتقلات، بل إلى الشهادة بالدم. ويهب الروح القدس كنيسة أوروبا وأمريكا موهبة الصمود أمام تيّارات الالحاد والمادية والانحراف. ويهب الروح القدس كنيسة ما وراء السور الحديدي (الدول الشيوعية) موهبة الثبات في الايمان والرجاء والتسامح. ويهب الروح القدس كنيسة أفريقيا السوداء موهبة الايمان الناشئ بيسوع المسيح... فالروح القدس لا يزيّن بمواهبه المؤمنين كمؤمنين فحسب، بل الكنيسة ككنيسة. انه يبني جسد المسيح بمواهبه لكيما يصبح المسيح حقاً «رأساً للكنيسة» قاطبة، والكنيسة «ملء ذاك الذي يسع كل شيء في كل شيء» (اف ١ / ٢٢ — ٢٣). «تمجيداً لله الآب» (فل ٢ / ١١).

١٢. على وجه المقارنة، كانت أفريقيا الشمالية كلها (الجزائر، تونس، المغرب، ليبيا) مسيحية عند الفتح الاسلامي، الا أنها لم تثبت في الايمان بالمسيح، خلافاً لكنيسة مصر.

القسم الثالث

المسيحي في رسائل بولس

كان بولس لاهوتياً عميقاً بارعاً ، اختبر وفهم ، وعرض وشرح سر الله وخلاصه اللذين تجلّيا في المسيح يسوع ، لكنه لا يحلّق نظره على الله فحسب ، بل ينظر أيضاً إلى الانسان ، إلى المؤمن الذي يتلقّى هذا السر وهذا الخلاص . كل شيء ينطلق من الله وينزل منه إلى الانسان. لذلك نخصّص القسم الثالث لهذا الانسان المؤمن بالمسيح . الحقّ يقال ان الانسان كان حاضراً باستمرار في حديثنا واهتمامنا في القسمَين السابقَين ، غير أننا نصوّب نظرنا الآن عليه بصفة خاصة . ولكننا سنلاحظ أن نظرنا ينتقل دائماً من الله إلى الانسان ، ومن الانسان إلى الله ، لأن بولس لا يفصل الإنسان عن الله.

كيف نقدّم حديث بولس عن المسيحي؟ ان السؤال وجيه لأن بولس لم يكتب كتاب لاهوت يفسّر فيه نظرته اللاهوتية ، فنذكر أن كتاباته كلّها وليدة تساؤلات المؤمنين واهتماماتهم ومواقفهم... حتى انه يمكن القول بأن بولس لاهوتي «وجودي» — ان صحّ استخدام هذه اللفظة الفلسفية — ، إذ انه يتطرّق إلى كل ما يختصّ بـ«وجود» المؤمن ، كمعضلة الحب ، والموت ، والألم ، والحرية ، والعلاقات البشرية ، والحياة اليومية... تناولت رسائل بولس هذه القضايا ، إلّا أن فكره غير منظّم. فدور التنظيم يعود إلى اللاهوتي ، وهذا ما نحاول أن نقوم به ، إذ نقدّم تنظيماً لفكر بولس عن المسيحي . وائنا نمحور هذا الفكر حول فكرة الانسان الجديد ، فيبدو لنا أن المسيحي عند بولس هو أساساً خلق جديد ينتقل من الحياة القديمة إلى الحياة الجديدة ، من حياة الإنسان القديم الذي يحيا لنفسه بعيداً عن الله دون رجاء ، إلى حياة الانسان الجديد الذي يحيا لله ؛

إذ انّه يموت ويقوم مع المسيح، فيعيش إنساناً حراً بحسب الروح، لا بحسب الجسد.

وننظّم حديثنا هذا حول ثلاثة محاور حاضرة في فكر بولس: المنطلق هو علاقة المسيحي بالمسيح نفسه، فالمسيحي هو من اعتمد «في» المسيح فمات وقام «مع» المسيح. وبناءً على هذه العلاقة، عليه أن يحيا بحسب الروح، تاركاً الروح القدس يعمل فيه. وهذه الحياة «المسيحية» / «الروحية»[1] هي تمجيد لله الآب في الحياة الأرضية، على رجاء المجد الآتي، فسنبني حديثنا إذاً على علاقة المسيحي بالمسيح أولاً، ثم بالروح، فبالآب.

نجد هنا أيضاً ما وجدناه في حديثنا عن الكنيسة المبنيّة على المسيح / الروح القدس. فبِنية الحياة المسيحية بِنية ثلاثية، وحياة المسيحي حياة المسيح والروح فيه تمجيداً للآب.

الفصل السابع

المسيحي والمسيح

إن المسيح، بموته وقيامته «يخلق في شخصه... إنساناً جديداً» (اف ٢ / ١٥). فالمنطلق هو يسوع المسيح الذي هو نفسه «الانسان الجديد» بكل معنى الكلمة، إذ هو «الانسان الآخر من السماء»، لا «الانسان الأول من التراب» (١ قور ١٥ / ٤٥ — ٥٢)، إذ هو آدم الجديد، لا آدم القديم (روم ٥ / ١٢ +). وإن كان المسيحي خلقاً جديداً، إنساناً جديداً، فبقدر ما يسوع المسيح هو بكر الاخوة الكثيرين (روم ٨ / ٢٩) وباكورة الأحياء والأموات، فيلدمج في شخصه حياة المؤمنين به ومصيرهم (قول ١ / ١٨ و١ قور ١٥ / ٢٠).

غير أن المسيحي يصبح إنساناً جديداً بمقدار ما يتمثّل بيسوع المسيح الانسان الجديد. فليست الحياة الجديدة عملية سحرية ينالها المؤمن من لدن الله، بل عليه أن يقتدي بالمسيح ليصبح مثله إنساناً جديداً. لذلك يكرّر بولس نداءه إلى المسيحيين: «تخلّقوا بخُلُق المسيح...» (فل ٢ / ٥ +). «اقتدوا بالله على مثال الأبناء والأحباء، وسيروا في المحبة سيرة المسيح...» (اف ٥ / ١ +). حتى انهم يصبحون على مثال صورة المسيح (روم ٨ / ٢٩ و١ قور ١٥ / ٤٩ وفل ٣ / ٢١).

ويتحقّق هذا الاقتداء اسرارياً وحياتياً. وأما اسرارياً ففي العماد والافخارستيا، كما سبق لنا أن رأيناه مراراً. فبالعماد «دُفنّا معه لنموت ونحيا حياة جديدة... إنساننا القديم قد صُلب معه...» (روم ٦ / ١ +). فالحياة الجديدة وليدة العماد في المسيح، هي «ختان المسيح» أي «خلع الجسد البشري» وترك الحياة القديمة، للوصول إلى الحياة «مع» المسيح (قول ٢ / ١١ — ١٣). فالعماد يغسل ويقدّس ويبرِّر باسم المسيح وبقوة الروح (١ قور ٦ / ١١). فالحياة الجديدة تبدأ إذاً بالعماد الذي يجعل المعمَّد «مع» المسيح. الحياة الجديدة

هي أصلاً حياة «مع» المسيح: آلام معه، وصلب معه، وموت معه، وقيامة معه.

وثمرة العماد وما يترتب عليه من حياة جديدة تنمو وتزدهر بكسر الخبز: «أليست كأس البركة التي نباركها مشاركة في المسيح؟ أليس الخبز الذي نكسره مشاركة في جسد المسيح؟» (١ قور ١٠ / ١٦). فالافخارستيا هي نموّ في الحياة «مع» المسيح، هي «مشاركة في» المسيح، بل ان الافخارستيا اعلان لموت المسيح وقيامته: «كلّما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس، تخبرون بموت الرب إلى أن يأتي» (١ قور ١١ / ٢٦). وليس هذا الاعلان بالكلام بقدر ما هو بالحياة كلّها، بالحياة الجديدة، حياة العماد.

وما يحياه المؤمن اسرارياً يحياه حياتياً أيضاً، في كل لحظات حياته اليومية. فالحياة الجديدة هي اشتراك في آلام المسيح وصلبه (فل ٣ / ١٠ وغل ٢ / ١٩ وروم ٨ / ١٧)، وهي موت عن عبودية الخطيئة وحياة لله (روم ٦ / ٦ + و٨ / ٣، وغل ٥ / ٢٤ واف ٤ / ٢٢ وقول ٢ / ١١ و٢٠، ٣ / ٤ — ٥ و٩ — ١٠)، بحيث تظهر في جسد المسيحي حياة المسيح (١ قور ٦ / ٢٠ و٢ قور ٤ / ١٠ وفل ١ / ٢٠). وبولس يقرن دائماً الموت — مع — المسيح بالقيامة — معه، (روم ٦ / ٤ و٢ قور ١٣ / ٤ وفل ٣ / ١٠ وقول ٢ / ١٢ و٢ طم ٣ / ١١). والآلام — معه بالمجد — معه (روم ٨ / ١٧ وقول ٣ / ١)، والموت — معه بسبب الخطايا، بحياة القيامة والجلوس في السموات بفضله (اف ٢ / ٥ — ٦)، ومعرفة آلامه بمعرفة قوة قيامته (فل ٣ / ١٠)، والجسد الحقير بالجسد المجيد (فل ٣ / ٣١)، وتجلّي الأمور الأرضية نحو الأمور العلوية المجيدة (قول ٣ / ١ — ٤)... هذا هو الانتقال الواقعي في الحياة اليومية من الحياة القديمة إلى الحياة الجديدة، من الحياة الغريبة عن المسيح إلى الحياة — مع — المسيح.

وتظهر الحياة الجديدة هذه في مثل رسالة رسول المسيح، الذي يشترك في آلام المسيح وموته. في قيامته وحياته: «نحمل في أجسادنا كل حين آلام موت المسيح، لتظهر في أجسادنا حياة المسيح أيضاً. فإننا، وإن كنّا أحياء، فما زلنا نُسلَم إلى الموت في سبيل يسوع، لتظهر في أجسادنا الفانية حياة يسوع أيضاً» (٢ قور ٤ / ٧ — ١٢). فالرسول لا يعرف إلّا المسيح المصلوب (١ قور ٢ / ٢)، متمّماً في جسده ما ينقص من آلام المسيح (قول ١ / ٢٤)، ومختبراً الموت (٢ قور ١ / ٩ — ١٠) والمشقات والسجون والجلد والضرب والرجم وأخطار السفر والجوع والعطش والبرد والعري والسهر والصوم وهموم الرسالة... (٢ قور ١١ / ٢٣ + و١٦ / ١ + ...)، حتى ان العالم يظنّ أنه مائت، في حين أنه بالفعل حيّ (٢ قور ٦ / ٩)، وضعيف كالمسيح، في حين أنه حيّ معه بقدرة الله (٢ قور ١٣ / ٣ — ٤).

فالمشاركة في موت / قيامة المسيح، التي هي انتقال من الحياة القديمة إلى الحياة الجديدة، هي أن يلبس الانسانُ الجديدُ المسيح: «لنخلعْ أعمال الظلام ولنلبسْ سلاح النور... البسوا الرب يسوع

المسيح» (روم ١٣ / ١٣ — ١٤). وهذا نتيجة العماد بالذات: «انكم، وقد اعتمدتم جميعاً في المسيح، قد لبستم المسيح» (غل ٣ / ٢٧). فالحياة الجديدة هي باستمرار أن «خلعتم الانسان القديم وخلعتم معه أعماله، ولبستم الانسان الجديـد» (قـول ٣ / ٩ — ١٠ اف ٤ / ٢٢ — ٢٤).

ثم ان المسيحي ينشر حوله رائحة المسيح الطيّبة: «اننا في سبيل الله عبير المسيح للسائرين في طريق الخلاص أو في طريق الهلاك: لهؤلاء رائحة موت تزيدهم موتاً، ولأولئك رائحة حياة تزيدهم حياة» (٢ قور ٢ / ١٥ — ١٦).

ويكتمل تعبير بولس في اتّحاد الانسان الجديد بالمسيح، أي الحياة «في» المسيح، على جميع مستوياتها. فهو مخلوق «في» المسيح (اف ١ / ٢ و٣ و١٠)، ويتقبّل روح الحرية «في» المسيح يسوع (روم ٨ / ٢)، والمسيح يقيم «في» قلبه (اف ٣ / ١٧)، وتظهر له مشيئة الله في الرب يسوع المسيح (١ تس ٥ / ١٨)، بل يحيا لله «في» المسيح (روم ٦ / ١١). والآب نفسه يدعو إلى مشاركة ابنه ربنا يسوع المسيح (١ قور ١ / ٩). فالانسان الجديد يحيا في المسيح إذاً، كما أن الذي يحيا في المسيح يشير إلى أنه إنسان جديد: «إذا كان أحد في المسيح. فإنه خلق جديد» (٢ قور ٥ / ١٧). لذلك عبّر بولس عن قمّة هذا الاتحاد بقوله: «ما أنا أحيا بعد ذلك. بل المسيح يحيا فيّ» (غل ٢ / ٢٠). «الحياة عندي هي المسيح» (فل ١ / ٢١). فالانسان الجديد هو في نهاية الأمر واحد مع المسيح. هو في المسيح والمسيح فيه[٢].

وإذا حاولنا أن نلخّص ما توصّلنا إليه من تنظيم فكر بولس حول علاقة المسيحي الانسان الجديد بالمسيح، أمكننا أن نميّز الخطوات الآتية:

١ — المسيح هو الانسان الجديد
٢ — يقتدي به المسيحي الانسان الجديد
٣ — ويتم هذا الاقتداء بالعماد والافخارستيا («مع» المسيح)
٤ — ويتحقّق في الحياة اليومية، حيث يلبس المسيح وينشر عبيره.
٥ — فيتّحد المسيحي بالمسيح («في» المسيح).

٢. يعبّر يوحنا عن الحقيقة نفسها بعبارات «السكنى» و«الثبات»: من ثبت في المسيح، سكن فيه المسيح.

الفصل الثامن

المسيحي والروح القدس

إن علاقة المسيحي بالمسيح يوطّدها الروح القدس. فالروح القدس هو الذي يجعل المسيحي يؤمن بأن يسوع المسيح هو الرب (١ قور ١٢ / ٣)، أي أنه واهب الايمان بيسوع المسيح، كما أنه هو الذي يجعل المسيحي يحيا الحياة الجديدة. أو بعبارة أخرى، على العلاقة بالمسيح المبنيّة على الايمان به أن تُترجَم وتتجسّد في الحياة الخُلُقية. فما يحياه المسيحي سرياً، بايمانه، من علاقة بالمسيح، بالعماد والافخارستيا، عليه أن يحياه حياتياً بدافع الروح القدس. فالروح القدس يجعل المسيحي يحيا الحياة المسيحية، حياة يسوع المسيح، فلا يمنحه أن يؤمن فحسب بالمسيح، بل أن يحيا حياته، الحياة الجديدة، حياة المسيح الانسان الجديد. إن الروح القدس يحقّق وينمّي الحياة الجديدة في الانسان الجديد. فمصدر إيمان المسيحي وحياته العملية هو الروح القدس. هذا ما نبغي أن نتعمّق فيه في هذا الفصل.

ويجدر بنا، بادئ ذي بدء، أن نبرّر عمل الروح هذا. فلماذا الايمان بالمسيح، وكذلك الايمان بالآب، وكذلك الحياة بموجب الحياة الجديدة، من صنع الروح القدس؟ هذا ما نحدّده في فقرة أولى. وفي فقرة ثانية نطبّق ذلك على ما يسمّيه بولس الحياة بحسب الجسد/ بحسب الروح، في حياة المسيحي، وفي فقرة ثالثة نطبّقه على الحرية المسيحية.

الروح روح الآب والابن

إن مبرّر عمل الروح القدس في المسيحي هو أنه روح الآب وروح الابن.

فالروح يشهد أننا أبناء الآب، فينادي فينا: «يا أبتاه» (روم ٨ / ١٤ — ١٧). والدليل على أننا أبناء الآب أنه أرسل روح ابنه إلى قلوبنا (غل ٤ / ٦ و٣ / ٥). فالآب أفاض في قلوبنا المحبة بالروح القدس (روم ٥ / ٥)، بل جعل فينا

روحه القدوس (١ تس ٤ / ٨) وأفاضه علينا وافراً بفضل يسوع المسيح (طي ٣ / ٥ — ٦). فالروح القدس، روح الآب، «حالّ في» الانسان الجديد (روم ٨ / ٩) ويعمل فيه حتى يجعله يحيا حياة القداسة (٢ تس ٢ / ١٣ و١ تس ٤ / ٣ و٨ و١ قور ٦ / ١١ و٢ قور ٣ / ١٨)، بل يمنحه الحياة (روم ٨ / ١ — ٢ و٥ و١٠ — ١١ و١ قور ١٥ / ٤٥ و٢ قور ٣ / ٦ وغل ٥ / ٢٥).

والروح القدس هو روح الابن (غل ٤ / ٦) الذي ينال للمؤمنين الروح الذي وُعد به ابراهيم (غل ٣ / ١٤). لذلك يجعل الانسان يؤمن بربوبية يسوع (١ قور ١٢ / ٣) ويكشف له المسيح (١ قور ٢ / ١٠) ويعرّفه المسيح حقّ المعرفة (أف ١ / ١٧) ويجعله يدرك وجميع القديسين ما هو العرض والطول والعلوّ والعمق لمحبة المسيح التي تفوق كل معرفة، ويتّسع لكل ما عند الله من معرفة (اف ٣ / ١٤ — ١٩).

غير أن هذا الروح، روح الآب والابن، ما هو إلّا «عربون» (٢ قور ١ / ٢٢ و٥ / ٥)، «عربون ميراثنا» (اف ١ / ١٤) «ليوم الفداء» (اف ٤ / ٣٠). فهو روح «الرجاء»، رجاء «الحياة الأبدية» (طي ٣ / ٧)، رجاء «التبنّي وافتداء أجسادنا» (روم ٨ / ٢٢ — ٢٥).

بناء على كل ذلك، فالروح هو حياة الانسان الجديد. يقول بولس: «نحيا بالروح» وبالتالي «علينا أن نقتفي آثار الروح» (غل ٥ / ٢٥).

فالانسان الجديد، الذي ينال التبنّي من الآب والخلاص من يسوع المسيح، يحيا بالروح حياة التبنّي والخلاص. فالروح يجعله يحيا في حياته الخُلُقية ما ناله سرًّا. أو، بعبارة سبق أن استخدمناها، إن الروح الذي يعمل انطولوجياً — في كيان الانسان بأنه يجعله ينتقل من الحياة القديمة إلى الحياة الجديدة — يعمل أيضاً وجودياً — في حياته الخُلُقية، في تصرفه وسلوكه. ان الروح يجعل الانسان الجديد يجسّد حياتياً ما ناله سرّيًّا، فيطبِّق في حياته سرّ التبنّي والخلاص.

هذا ما نراه الآن في إظهار تضادَين يتحدث عنهما بولس: الحياة بحسب الجسد / الحياة بحسب الروح من جهة، عبودية الخطيئة / حرية أبناء الله من جهة أخرى. وسنتطرّق إليهما على التوالي.

الحياة بحسب / الجسد / الروح

يجب التعريف بما يعنيه بولس عندما يتحدّث عن الحياة «بحسب الجسد»، ثم الحياة «بحسب الروح»، لاظهار الصراع الذي يدور بينهما في الانسان الجديد.

الحياة بحسب الجسد: إن لفظة «الجسد» تعريب خاطئ للكلمة اليونانية (Sarx) التي تعني «اللحم». ان لفظة Sarx، أي «اللحم»، سلبية وعنصر شر في المفهوم المسيحي، إلّا أن «الجسد» (Soma) ليس بشرّ[1]، لكن بولس يستخدم كلمة «جسد» للدلالة على الكنيسة

١. اذا كان للجسد، في روحانيتنا المتداولة، معنى سلبيّ — وبالتالي «الجنس» — فهذا خطأ. لم يقل بولس ذلك قط. وللتعريب الخاطئ دور في ذلك.

ـــ جسد المسيح ـــ وعلى أعضاء المسيح الأحياء في كنيسته.

وأما الحياة «بحسب الجسد» ـــ أو بالأدق «بحسب اللحم» ـــ فلا تختصّ أولاً بالحياة الجسدية، بل ـــ وان بدا ذلك غريباً في أول وهلة ـــ بالحياة الزوحية. فالحياة بحسب الجسد تختصّ أولاً بالعلاقة الخاطئة مع الله الآب ويسوع المسيح. فالانسان الذي يحيا حياة الجسد هو الانسان القديم، ويصفه بولس على النحو الآتي: «الجسد ينزع إلى الموت (وأمّا الروح فينزع إلى الحياة والسلام). ونزوع الجسد تمرُّد على الله، فلا يخضع لشريعة الله، بل لا يستطيع ذلك. والذين يسلكون سبيل الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله» (روم ٨ / ٥ ـــ ٨). بعبارة أخرى، الحياة القديمة هي عداوة مع الله، هي الحياة الخالية من الله، حياة الانسان المتروك لنفسه، الذي يبني حياته على ذاته، لا على الله، فلا يرضيه ولا يطيعه[٢]. بهذا المعنى تكون الحياة بحسب الجسد ـــ «نزوع الجسد» واهتمامه ـــ مرتبطةً بالحياة الروحية، بعلاقة الانسان مع الله.

والحياة القديمة تتناول أيضاً العلاقة بالمسيح، أي عدم معرفته: «اذكروا أنكم كنتم يومئذ من دون المسيح، بعيدين عن رعية اسرائيل، غرباء عن عهود الموعد، ليس لكم رجاء ولا إله في هذا العالم. (أما الآن ـــ وأنتم في المسيح يسوع ـــ) فقد كنتم أباعد (فصرتم أقارب بدم المسيح) (اف ٢ / ١٢ ـــ ١٣). فالحياة بحسب الجسد هي الحياة بدون المسيح، بدون معرفته. وهي تختصّ أيضاً بالحياة الروحية، فهي عدم علاقة الانسان بالمسيح.

وبناء على هذا البُعد الروحي، حيث لا علاقة بالله، بل تمرُّد عليه، تظهر الحياة بحسب الجسد في الحياة الخُلُقية. فعدم العلاقة مع الله يسبّب انحرافاً في الحياة الخُلُقية: «أما أعمال الجسد فإنها ظاهرة، وهي الزنى والدعارة والفجور، وعبادة الأوثان والسحر، والعداوات والشقاق والحميّة والغيظ، والدسيسة والخصام والتشيّع، والحسد والسكر والقصف وما أشبه» (غل ٥ / ١٩ ـــ ٢٠)، فضلاً عن «كل شراسة وسخط وغضب وصخب وشتيمة وكل سوء... والزنى والدعارة والطمع..» (اف ٤ / ٣١ ـــ ٥ / ٢٠).

فمختصر الكلام أن للحياة الروحية في قطعها العلاقة مع الله أثراً في الحياة العملية، أو أن «اللاهوتي» (Théologal) يؤثر في «الخُلُقي» (Moral). هذه هي الحياة بحسب الجسد، أو بحسب «اللحم»، حياة دون الله وما يترتّب على ذلك من حياة دون أخلاقيات.

الحياة بحسب الروح: وأما الحياة «بحسب الروح»، فهي الحياة التي يقودها الروح القدس وتختصّ أولاً هي أيضاً بالحياة المتعلّقة بالآب والابن كما شرحناها سابقاً، إذ ان الروح هو روح الآب

٢. هذه هي بالفعل خطيئة آدم وحواء، خطيئة الكبرياء والاستغناء عن الله.

والابن. فالحياة بحسب الروح هي حياة البنوّة وحياة الخلاص، يلخّصها بولس في هذه العبارة: «احسبوا أنتم أنكم أموات عن الخطيئة، أحياء لله في يسوع المسيح» (روم ٦ / ١١). فللارتباط بالآب والابن تأثير في الحياة الخُلُقية، في الموت عن الخطيئة. وهذا ما يُظهره بولس جلياً عندما يعدّد «ثمار الروح» إزاء «أعمال الجسد» في السلوك والتصرف والسيرة: «أما ثمر الروح فهو المحبة والفرح والسلام وطول الأناة، واللطف ودماثة الأخلاق والأمانة والوداعة والعفاف... إن الذين هم خاصّة المسيح قد صلبوا جسدهم وما فيه من أهواء وشهوات» (غل ٥ / ٢٢ — ٢٤). «ثمر النور يكون في كل صلاح وبرّ وحق». ويدخل بولس في تفاصيل الحياة اليومية. فيقول مثلاً: «دعوا الروح يملأكم» لا المشروبات الروحية، موصياً بالبصيرة في السيرة كالعقلاء لا كالجهلاء. لذلك يدعو الذين نالوا الحياة الجديدة في ختام حديثه أن «لا تحزنوا روح الله القدّوس» (اف ٤ / ٨ — ٣١). فالروح القدس هو العامل داخل الانسان الجديد، إذ انه «حالّ فيه». وإذا لم يعمل الانسان الجديد بموجب الحياة الجديدة، مُظهراً ثمار الروح، أحزن الروح القدس.

صراع الجسد / الروح: بين الروح والجسد نزاع في حياة الانسان الجديد الخُلُقية: «الجسد يشتهي ما يخالف الروح، والروح يشتهي ما يخالف الجسد: كلاهما يقاوم الآخر، حتى انكم لا تعملون ما لا تريدون» (غل ٥ / ١٧). ويوضّح بولس هذا الصراع العنيف في قوله الشهير: «الذي أريده لا أفعله. وأمّا الذي أرغب عنه فإياه افعل... فالرغبة في الخير هي باستطاعتي، وأمّا فعله فلا. فالخير الذي أريده لا أفعله، والشرّ الذي لا أريده إيّاه أفعل». ويصرخ قائلاً: «ما أشقاني من إنسان! فمَن يُنقذني من هذا الجسد الذي يصير بي إلى الموت؟». ولكنه سرعان ما يردّ على تساؤله: «الحمد لله بربنا يسوع المسيح» (روم ٧ / ١٤ +). صحيح أن كلام بولس هذا في روم خاص بحالة الانسان تحت حكم الشريعة، لا النعمة، أي خاص بالانسان القديم، لا الجديد، لكن الانسان الجديد يحيا الصراع عينه في داخله، كما يصفه بولس في غل.

وهنا يجدر بنا أن نتساءل: كيف يعاني الانسان الجديد هذا الصراع وهو خلق جديد؟ أللقوى وللحياة القديمة من تأثير فيه؟ الردّ على ذلك أن الانسان قبل المسيح كان يتصارع بين الجسد والروح، وأما بعد المسيح فالحياة أصبحت حياة الروح فحسب، إذ ان الروح حالّ في الانسان الجديد، روح الآب والابن. غير أن للقوى أثراً فيه ولو محدوداً[٣]. ثم ان للانسان دوره للعمل في سبيل الحياة بحسب الروح. فكما أشرنا إليه مرّات كثيرة، ليس الخلاص عملاً

٣. رأينا ذلك في الفصل الأول، في حديثنا عن انتصار المسيح وتركه للقوى بعض الحرية. وإن كانت محدودة، الى أن ينتصر عليها انتصاراً تاماً في مجيئه الثاني. غير أن انتصار قيامته عربون للانتصار النهائي.

سحرياً يعمله الله وحده، بل على الانسان أن يساهم فيه. واثقاً برجاء انتصاره بانتصار المسيح وبقوّته. لذلك يقول بولس: «أفتخر راضياً بحالات ضعفي لتحلّ بي قدرة المسيح... إذا ما كنتُ ضعيفاً كنت قوياً». وهذا ما يقوله الرب يسوع نفسه: «حسبك نعمتي، ففي الضعف يبدو كمال قدرتي» (٢ قور ١٢/ ٩ — ١٠). ولقد اختبر بولس طيلة حياته الرسولية قوة المسيح هذه: «أستطيع كل شيء بذاك الذي يقوّيني» (فل ٣/ ١٣). فكانت ثقته قوية بالله الذي «لم يضنّ بابنه»: «إذا كان الله معنا. فمن يكون علينا؟... فزنا فوزاً مُبيناً. ويعود الفضل إلى الذي أحبّنا... لا شيء بوسعه أن يفصلنا عن محبة الله لنا في ربنا يسوع المسيح» (روم ٨/ ٣١+).

فالانسان الجديد مدعو إلى أن يحيا الحياة الجديدة دون أي مساومة مع الحياة القديمة. لذلك يعتبر بولس أنه في النعمة وتحت سلطتها وأنه غير منقسم أنطولوجياً بين الحياتين، ولكنه منقسم بينهما وجودياً. وفقاً لتمييزنا السابق بين الصعيد الانطولوجي الذي أسّسه يسوع المسيح بموته/ قيامته. والصعيد الوجودي حيث تتنازع الانسان الجديد أنطولوجياً قوى الخير والشرّ معاً.

الحياة في العبودية/ الحرية

قيل في بولس انه لاهوتيّ الحرية المسيحية، لأنه أرسى قواعدها وأظهر معانيها ووضّح متطلباتها. وهذا ما نبغي تبيانه في هذه الفقرة. ويمكننا تنظيم فكره في هذا المضمار حول ثلاثة محاور: الأول — وقد تحدّثنا عنه في حديثنا عن موت المسيح، لذلك لن نعود إليه — هو أن المسيح حرّرنا من الشريعة والخطيئة والقوى والموت. وأما المحور الثاني فيختصّ بدور الإنسان الجديد الذي حرّره المسيح. فعليه أن يتعاون معه بقوة الروح القدس في سيرته وسلوكه وتصرّفه ليحقّق الحرية في حياته. وأمّا المحور الثالث فيتعلّق بحالة الحرية التي يتنعّم بها الانسان الجديد، ثمرة البنوّة الالهية وخلاص المسيح وإرشاد الروح القدس وتعاون الانسان. وسنعالج إذاً النقطتين الأخيرتين.

دور الإنسان الجديد في التحرّر: على غرار ما قلناه في دور الانسان الجديد ليجسّد الحياة بحسب الروح، نقول ان التحرّر، الذي أتى به يسوع المسيح بموته/ قيامته، يدعو الانسان، الذي تحرّر من الشريعة والخطيئة والقوى والموت، إلى أن يتجاوب مع المسيح، ويحافظ على التحرّر الذي ناله مجّاناً، وينمّيه، ويحقّقه في حياته الخُلُقية. ويقول بولس في هذا الصدد، مبيّناً جلياً دور المسيح ودور الانسان الجديد الحرّ: «ان المسيح قد حرّرنا لنكون أحراراً. فاثبتوا إذاً ولا تعودوا إلى نير العبودية» (غل ٥/ ١). فما ناله الانسان سرياً بفضل موت/ قيامة المسيح، عليه أن يحياه وجودياً في أخلاقياته وسيرته، في تصرّفه وسلوكه. وهنا يتدخّل الروح القدس الذي يُدخِل خلاص المسيح وتحرّره في واقع حياة الانسان الجديد، مساعداً ومقوّياً ايّاه في اكتساب التحرّر ودمجه في حياته.

لذلك يوصي بولس المؤمنين — بصيغة الأمر — بأن يعملوا للحفاظ على التحرّر: «تقوّوا في الرب وفي قدرته العزيزة» — «تسلّحوا بسلاح الله» — «انهضوا» — «تترّسوا بالايمان» — «البسوا خوذة الخلاص وتقلّدوا سيف الروح، أي كلام الله»... (اف ٦ / ١٠ +).

ويمكن تنظيم كلام بولس هذا في أربع فِكَر: تجنّب مواقف الانسان القديم — حسن استخدام الحرية — تقبّل الصليب — الحرية تجاه كل شيء.

١ — تجنّب مواقف الانسان القديم: إن الانسان القديم لا يزال حياً — وجودياً لا أنطولوجياً — في الانسان الجديد. لذلك يناشد بولس المؤمنين بتجنّب عبودية الخطيئة: «نحن، أيها الاخوة، علينا حقّ، ولكن ليس للجسد لنحيا حياة الجسد، لأنكم إذا حييتم حياة الجسد تموتون، أمّا إذا أمتّم بالروح أعمال الجسد فستحيون» (روم ٨ / ١٢ — ١٣). ويتحدث بولس عن خبرته الشخصية قائلاً: «أقمع جسدي وأذيقه العبودية» (١ قور ٩ / ٢٧). فواضح من كلامه هذا أن الروح يثبّت الانسان الجديد في التحرّر الذي وهبه المسيح اياه. ويؤكد ذلك في كلام على زاني قورنتس: «أما تعلمون أن أجسادكم هي أعضاء المسيح؟ أفآخذ أعضاء المسيح وأجعل منها أعضاء بغيّ؟... أوما تعلمون أن أجسادكم هيكل الروح القدس...؟» فإن كان المسيح قد حرّر الجسد من سلطة الخطيئة، فعلى الانسان الجديد أن يحافظ بقوة الروح القدس على قدسيّة جسده، إذ انه «ليس للزنى، بل للرب» (١ قور ٦ / ١٢ +). ولكن، ان عمل الانسان في سبيل أمانة الجسد، فلا يعني ذلك أنه يعمل أعمالاً إرادية تقوده إلى «البرّ الذاتيّ» (روم ٥ — ٧ وغل ٣) فيبدو له أنه يعمل بقوّته الشخصية. فالحق أن الله هو الذي يعمل فيه، وان كان الانسان الجديد يتغلّب على أعمال الجسد والحياة بحسب الجسد، فالفضل يعود في ذلك إلى المسيح الذي حرّره منها وإلى الروح القدس الحالّ فيه ليُميتها.

وبصفة عامة، يحذّر بولس المؤمنين من العودة إلى أعمال الشريعة وقد حرّرهم منها المسيح، إذ انها هي أيضاً من أعمال الجسد: «يا أهل غلاطية الأغبياء... الذي خُطّت نصب أعينهم صورة المسيح المصلوب... ألأنكم تعملون بأحكام الشريعة نلتم الروح، أم لأنكم تؤمنون بالبشارة؟ أبلغت بكم الغباوة إلى هذا الحدّ؟ أتنتهون بالجسد بعد ما ابتدأتم بالروح؟...» (غل ٣ / ١ +). فأعمال الشريعة — «الجسد»، وهنا الختان اليهودي — لا تبرّر، بل يسوع المسيح المصلوب يحرّر منها وينال الروح للمؤمنين، روح التحرّر من الشريعة.

وبالتالي يجب عدم «مراعاة الأيام والشهور والفصول والسنين» (غل ٤ / ١٠)، ولا الخضوع للنواهي: «لا تأخذ، لا تذق، لا تمسّ، تلك الأشياء كلها تؤول بالاستعمال إلى الزوال. انها وصايا ومذاهب بشرية... لا قيمة لها». (قول ٢ / ٢٠ +). فالمسيح قد حرّر من الشريعة، ولا

سيّما من الحلال / الحرام. فلم يعد في الحياة الجديدة من حلال وحرام، والروح القدس هو روح الحرية لا الحرف[4].

٢ — حسن استخدام الحرية: إن كان الأمر هكذا، فهناك خطر يهدّد الانسان الجديد، فهو يظنّ أن كل شيء مسموح له، بما أنه في حكم النعمة، ولا في حكم الشريعة، في الروح، لا في الحرف، في الحرية، لا في عبودية الحلال / الحرام. لذلك يقول بولس: «انكم، أيها الاخوة، قد دُعيتم إلى الحرية، على ألّا تجعلوا هذه الحرية سبيلاً لارضاء الجسد» (غل ٥ / ١٣). فعلى الانسان الجديد أن يميّز ما هو للخير وما هو لارضاء الجسد. فلم يعد المعيار الحلال / الحرام، بل التمييز: هل في فعله منفعة وبنيان، ولا: هل هذا مسموح أم لا: «كل شيء يحلّ لي، ولكن لا ينفعني كل شيء» (١ قور ٦ / ١٢) «كل شيء حلال، ولكن ليس كل شيء بنافع. كل شيء حلال، ولكن ليس كل شيء يبني» (١ قور ١٠ / ٢٣). فيكمن حسن استخدام الحرية في أن يميّز الانسان الجديد تمييزاً روحياً ما هي أعمال الروح وما هي أعمال الجسد، بدل أن يعتمد على ما هو حلال في حد ذاته وما هو حرام. فما هو حلال قد لا يفيد ولا يبني، وبالتالي يصبح من أعمال الجسد ولارضاء الجسد بحسب شريعة الحياة القديمة. لذلك يؤكّد بولس: «دُعيتم إلى الحرية»، فالحرية هي المعيار، وهي تستدعي تمييزاً مستمراً: أساسه المحبة وخدمة الآخرين (غل ٥ / ١٣ — ١٤).

٣ — تقبّل الصليب: لا يتحرّر الإنسان الجديد بتجنّب مواقف الانسان القديم بحسن استخدام الحرية فحسب، بل هناك موقف خاص بعلاقته بالمسيح، أي حياته العملية. فالانسان المتحرر هو ذاك الذي يتقبّل صليب المسيح وينظر إلى حياته بمنظار صليب المسيح. وعند بولس كلمة قوية في هذا الصدد: «صُلب العالم لي وصُلبتُ أنا للعالم» (غل ٦ / ١٤). في قوله هذا، تحرّر من العالم ومن قيمه ومن معناه المطلق. ونجد هنا ما قلناه سابقاً أن بولس يعدّ كل شيء نفاية من أجل الربح الأعظم وهو يسوع المسيح (فل ٣ / ٥ +).

ويظهر صليب المسيح في أمور الجسد أيضاً: «إن الذين هم خاصة المسيح قد صلبوا جسدهم وما فيه من أهواء وشهوات» (غل ٥ / ٢٤). فالانسان الجديد هو الذي يصلب جسده كما صُلب جسد المسيح، جسد الخطيئة. فالانسان الجديد حر تجاه جسده ومتطلباته الشهوانية. كما أن صليب المسيح يظهر في تحمّل الشدائد: «قد امتلأتُ بالعزاء وفاض قلبي فرحاً في شدائدنا كلّها» (٢ قور ٧ / ٤). فالانسان الجديد هو الذي يواجه الشدائد والآلام بحرّية تجاهها كما فعله المسيح. وذلك لأجل جسده وهو الكنيسة (قول ١ / ٢٤).

٤. لم تدمج الى اليوم روحانيتنا الشرقية معنى الحرية الحقيقية، بل تظل على مستوى «الحلال /الحرام». ان في ذلك استبدالاً للحياة الجديدة انطولوجياً بالحياة الخلقية والعقلية، التي هي عقلية الشريعة والعهد القديم وبعض الشرائع الأخرى، لا عقلية العهد الجديد والحياة الجديدة.

٤ — الحرية تجاه كل شيء: الانسان الجديد يعمل تدريجياً في حياته اليومية إلى أن يكون حُرَّ القلب والفكر، حُرًّا تجاه الأشياء والأشخاص. فتتمثّل حرية قلبه في أنه يتحمّل كل ما يسيء إلى سمعته: «... نُلعَن فنبارِك، نُضطهد فنحتمل، يُشنَّع علينا فنردّ بالحُسنى. صرنا شبه كناسة العالم ولا نزال نفاية الناس أجمعين» (١ قور ٤ / ١٠ — ١٣ و٢ قور ٦ / ٤ — ١٠). وهو حرّ تجاه كل ما كان يفخر به في حياته القديمة: «... ما كان من ربح لي، عددتُه خسراناً من أجل المسيح، بل أعدّ كل شيء خسراناً من أجل الربح الأعظم، ألا وهو معرفة ربي يسوع المسيح. من أجله خسرتُ كل شيء وعددت كل شيء نفاية لأربح المسيح...» (فل ٣ / ٥ — ١٠).

كما أنه حُرّ تجاه الحب البشري: «غير المتزوّج يصرف همّه إلى أمور الرب والوسائل التي يُرضي بها الرب. والمتزوّج يصرف همّه إلى أمور العالم والوسائل التي يُرضي بها امرأته، فهو منقسم». بل انه ينصح المتزوجين: «الذين لهم نساء فليحيوا كالذين لا نساء لهم...»، وذلك إذ «ان الزمان يتقاصر» (١ قور ٧). «كل شيء يحلّ لي، ولكني لا أدع شيئاً يغلب عليّ» (١ قور ٦ / ١٢). فالانسان الجديد إنسان حرّ القلب بحريّة تامّة تجاه الأشخاص والأشياء. انه يجعل نفسه حرًّا لأجل المسيح ويربح الآخرين للمسيح: «مع أني حرّ لدى الناس، فقد جعلتُ من نفسي عبداً لجميع الناس لكي أربح أكثرهم. فصرت يهودياً لأربح اليهود، وصرت لأهل الشريعة من أهل الشريعة... لأربحهم... وصرت للضعفاء ضعيفاً لأربح الضعفاء... وأفعل هذا كله في سبيل البشارة» (١ قور ٩ / ١٩ — ٢٣). هذه هي صورة الإنسان الجديد، الانسان الحرّ لأجل المسيح.

هذا الإنسان الحرّ حرّ الفكر أيضاً، لأن فكره فكر الرب نفسه: «الإنسان الروحاني يحكم في كل شيء ولا يحكم فيه أحد. فمَن الذي عرف فكر الرب ليُرشده؟ وأمَّا نحن فلنا فكر المسيح» (١ قور ٢ / ١٥ — ١٦).

وخلاصة كلام بولس أن الانسان الجديد يجاهد مع الرب لكيما يتحرر من كل القيود ويصبح إنساناً حراً لأجل الرب. انه يصل إلى أن يكون حراً تجاه كل ما ليس هو الرب، تجاه كل ما ليس الحياة الجديدة. فهو يحيا الحرية الحقيقية. وحالة الحرية هذه علينا أن نُظهرها ختاماً لجولتنا في فكر بولس في الحرية المسيحية.

حالة حرية الانسان الجديد: في إطار كل ما سبق، أي ان الانسان الجديد، الانسان الحرّ، هو ابن الوعد الذي وعد الله به ابراهيم من سارة المرأة الحرّة (غل ٤ / ٢٦ +). فالانسان الجديد مدعوّ إلى الحرية (غل ٥ / ١٣)، «حرية أبناء الله» (روم ٨ / ٢١). فالحرية المسيحية أساسها البنوّة الالهية. لأن الله أب، فالانسان ابنه، ابن حرّ. كان عبداً للخطيئة فأصبح خادماً للبرّ الذي يقود إلى القداسة (روم ٦ / ١٥)، كان عبداً لشريعة الخطيئة فأصبح خادماً لشريعة الله (روم ٧ / ٢٥).

والانسان الجديد خادم للمسيح فيُرضي الله

والناس هكذا (روم ١٤ / ١٨). بل انه يحيا للمسيح :

«كل شيء لكم، وأنتم للمسيح، والمسيح لله» (١ قور ٣ / ٢٢ — ٢٣). والروح القدس، الذي ينال التبنّي للانسان الجديد، يجعل منه وارث الله وشريك المسيح في الميراث (روم ٨)، كما أنه يفيض في قلبه المحبة (روم ٥ / ٥)، المحبة المقرونة بخدمة الآخرين (غل ٥ / ١٣ + و١ قور ٩ / ١٩ وروم ١٣ / ٨ +). في ذلك تكمن حرية الانسان الجديد، فهو الذي يحيا البنوّة الالهية والأخوّة بالمسيح والمحبة للآخرين، هو الذي يقوده الروح القدس في العلاقة مع الآب والابن والاخوة (روم ٨ / ١ — ٢٧). لذلك يقول بولس :

«حيث يكون روح الرب، تكون الحرية» (٢ قور ٣ / ١٧). الروح القدس هو حرية الانسان الجديد المتّصل بالآب والابن والاخوة. هذا مختصر كلام بولس على الانسان الجديد الذي يحلّ فيه الروح القدس.

ويتبقّى علينا، بعد أن تجوّلنا في فكر بولس في الانسان الجديد من زاوية المسيح، ثم الروح القدس، أن نستشف ما يقوله فيه من زاوية الله الآب.

الفصل التاسع

المسيحي والآب

تتّجه حياة الانسان الجديد كلّها نحو الآب[1] والمجد الآتي. فكما أنها تنطلق من الآب بالخلق والتبنّي، تنتهي كذلك إليه. وبين البداية والنهاية، تكمن الحياة الجديدة، حيث يتوجّه الانسان الجديد إلى الآب في الصلاة، ويحيا للآب وفي الآب. كل هذه الأحرف تكوّن عناصر الحياة الجديدة في علاقتها بالآب، نتحرّى عنها في هذا الفصل.

الحياة الجديدة «من» الآب

كل حياة تنبع من الآب. هذا هو عصب العهد القديم والجديد، وفكر بولس الذي يُظهر ذلك في رسالته إلى رومة خاصةً. ولكن ما يميّز فكر بولس هو فكرة البنوّة. فالانسان الجديد هو الذي ينال له يسوع المسيح التبنّي الالهي: «قدَّر لنا أن يتبنّانا بيسوع المسيح» (اف ١ / ٥)، إذ يصبح الانسان الجديد مشتركاً في بنوّة المسيح: «دعاكم إلى مشاركة ابنه ربنا يسوع المسيح» (١ قور ١ / ٩)، يسوع المسيح هذا الذي يصبح «بكراً لاخوة كثيرين» (روم ٨ / ٢٩)، أبناء الآب[2]. وبولس يحثّ المسيحيّين على الاقتداء بالله كأبناء: «اقتدوا بالله على مثال الأبناء الأحبّاء» (اف ٥ / ١ — ٢). والانسان الجديد هو الذي تتحقّق وتظهر فيه البنوّة بفضل الروح القدس: «الذين ينقادون إلى روح الله، يكونون أبناء الله حقاً» ،فالروح يشهد معه بأنه ابن الله لأنه روح الله (روم ٨ / ١٤ + وراجع غل ٤ / ٦).

١. في رسائل بولس: «الله» هو الآب، كما أن «الرب» هو يسوع المسيح عادةً. والأبوّة البشرية نفسها مصدرها الآب: «منه كل أبوّة» (اف ٣ / ١٥).

٢. المسيح بالطبيعة الالهية، البشر بالتبنّي الالهي.

فالحياة الجديدة هي أساساً حياة البنوّة: الآب الذي يتبنّى والإنسان الذي يحيا بحسب هذا التبنّي. فمصدر الحياة الجديدة هو الله الآب — بيسوع المسيح والروح القدس — ومحرّك الحياة الجديدة هو الآب أيضاً، كما أن مضمونها هو علاقة البنوّة.

ويترتّب على ذلك أن يثق الانسان الجديد بأبيه ويتّكل عليه، لا على نفسه (٢ قور ١ / ٩)، ويتقرّب إلى الله مطمئناً (اف ٣ / ١٢) لأنه الآب.

الحياة الجديدة «إلى» الآب

وتتحقّق أيضاً الحياة الجديدة في الصلاة إلى الآب، فمن الجدير بالذكر أن الصلاة في رسائل بولس موجّهة دائماً إلى الآب، لا إلى الابن أو إلى الروح. ان المسيح وسيط بين الانسان والله (١ طيم ٢ / ٥ واف ٣ / ١٢)، وبين بولس والمسيح مودّة، والروح يجعله يصلّي (روم ٨ / ٢٦)، لكن الصلاة موجَّهة إلى الآب بالابن وفي الروح.

ويميّز بولس في الصلاة الأنواع الآتية:

١ — صلاة الشكر والحمد (قول ٣ / ١٦ + و٢ قور ١ / ٣ و١١ / ٣١ و١ قور ١٠ / ٣٠ واف ١ / ٣ +). ويستهلّ رسائله بها.

٢ — صلاة الشفاعة (قول ٢ / ٩ وفل ١ / ٩ و٢ تس ٣ / ٢ و٢ قور ١٣ / ٧)، فهو يتشفع من أجل المؤمنين لازدياد ايمانهم ورجائهم ومحبتهم.

٣ — صلاة التأمّل (اف وقول خاصةً). يكشف الله لبولس ذاته (٢ قور ١٢ / ١ +) و«سر المسيح»، لكن بولس يتعمّق فيه بتأمّله، مدركاً هكذا «ما هو العرض والطول والعلو والعمق» و«محبة المسيح التي تفوق كل معرفة» (اف ٣ / ١٤ +)[٣].

الحياة الجديدة «لـ» الآب

وتتميّز أيضاً الحياة الجديدة بأنها حياة لله، لا للذات. فموت / قيامة المسيح جعلت الانسان الجديد يحيا حياة المسيح، وبالتالي يقول بولس: «احسبوا أنتم أنكم أموات عن الخطيئة، أحياء لله في «يسوع المسيح».فليست الحياة الجديدة مِلكاً لله بفعل الخليقة فحسب —«الأرض وما عليها للرب» (مز ٢٣ / ورد في ١ قور ١٠ / ٢٦)— ولكن بفضل المسيح خاصة: «في يسوع المسيح». فالانسان الجديد يحيا لأجل الله في المسيح. وجسده «ليس هو للزنى، بل للرب» (١ قور ٦ / ١٢).

ويظهر هذا في كل حياة الانسان الجديد. فيقول بولس في هذا الصدد: «إذا أكلتم أو شربتم أو مهما فعلتم، فافعلوا كل شيء لمجد الله» (١ قور ١٠ / ٣١). «مهما يكن لكم من قول أو فعل، فليكن باسم الرب يسوع تحمدون به الله الآب» (قول ٣ / ١٧).

٣. ثمة فرق بين بولس ويوحنا: يتأمل بولس بذهنه، في حين أن يوحنا يشاهد بقلبه وحواسه (راجع مثلاً ١ يو ١ / ١+).

فالحياة الجديدة حياة كلّها لأجل الله الآب ولتمجيده وحمده، كما أن يسوع المسيح نفسه — الانسان الجديد — مات وقام وتمجّد «تمجيداً لله الآب» (فل ٢ / ١١). والله خَلَقَ، بل تبنّى البشرية «لحمد نعمته السنيّة» (اف ١ / ٦).

الحياة الجديدة «في» الآب

ويخطو بولس خطوة أخرى تصل إلى أعماق الله. فقمّة الحياة الجديدة تكمن في أنها «محتجَبة مع المسيح في الله» (قول ٣ / ٣). لا تظهر حياة الانسان الجديد في الخارج فحسب، بل في الداخل أيضاً، انها حياة باطنية. ليست حياة عملية فحسب، بل انها حياة روحية أيضاً، حياة سرّية. هي حياة اتّحاد بالآب. الانسان الجديد إنسان يحيا في الآب.

ويجدر هنا أن نوضّح أن بولس لا يقول: «الحياة عندي هي الآب»، بل «الحياة عندي هي المسيح» (فل ١ / ٢١). فالاتحاد المتطابق يتمّ بين الانسان الجديد والمسيح بنبرة من المودّة. غير أن اتحاده بالله الآب — الذي لا وجه له ولم يتجسّد، بل يظلّ الاله المتعالي — اتحاد غير متطابق، اتحاد يظل فيه التمييز واضحاً.

ويجدر أيضاً بنا أن نلاحظ أن بولس يقول لنا اننا في الآب، ولا يقول ما وضعه يوحنا على لسان يسوع: ان الآب فينا ويسكن فينا. فلاهوت يوحنا يُظهر جلياً وحدة الآب والابن — «أنا والآب واحد» (يو ١٠ / ٣٠) — فالآب في الابن والابن في الآب (يوحنا ١٤ / ١٠)، وكذلك تلميذ يسوع في الآب والابن، والآب والابن فيه، وهما يجعلان منه سكناهما (يو ١٤ / ٢٣). وأما بولس فيُظهر الاتحاد في أن الانسان الجديد هو في الآب، ولا الجانب الآخر، أي ان الآب فيه. ولن يتم ذلك إلّا في نهاية الأزمنة ومع الجميع، حيث يكون «هو فيهم جميعاً» (اف ٤ / ٦)، «يكون كل شيء في كل شيء» (١ قور ١٥ / ٢٨)، و«يعمل كل شيء في جميع الناس» (١ قور ١٢ / ٦). و«الآب في» تعبير لا يختص بالإنسان الجديد في حياته الأرضية، بل يختص بالبشرية جمعاء في آخر الزمان. وأمّا الانسان «في الله»، فيختص بالحياة الجديدة.

الحياة الجديدة «نحو» الآب

قادتنا الفكرة الأخيرة إلى «المجد الآتي» (روم ٨ / ١٨ +): «فالخليقة تنتظر بفارغ الصبر تجلّي أبناء الله... ستُعتق من عبودية الفساد، لتشارك أبناء الله في حريتهم ومجدهم. فإننا نعلم أن الخليقة جمعاء تئنّ إلى اليوم من آلام المخاض، وليست وحدها، بل نحن الذين لهم باكورة الروح نئن في الباطن، منتظرين التبنّي وافتداء أجسادنا». فالحياة الجديدة، التي منطلقها هو الآب، تتّجه وتتوّج عند الآب. فالذين لهم باكورة الروح ينتظرون مجد الآب: التبنّي الكامل والفداء الكامل.

ولقد سبق لنا أن رأينا ذلك في حديثنا عن المجيء الثاني ليسوع المسيح. حيث سيخضع للذي أخضع له كل شيء — أي الآب. فحينذاك سيأتي «من بعد (المسيح) الذين يكونون خاصة المسيح» — أي كل إنسان جديد (١ قور ١٥ /

٢٠ + و١ تس ٤ / ١٣ +). فالانسان الجديد هو الذي ينتظر خضوع كل شيء للآب الذي يصبح «كل شيء في كل شيء».

وإن هذا الانتظار رجاء ثابت لا يتزعزع. انه رجاء لأنه «إذا شوهد ما يُرجَى، بَطُل، وكيف يرجو المرء ما يشاهده؟ ولكن، إذا كنّا نرجو ما لا نشاهده، فبالصبر ننتظره» (روم ٨ / ٢٤).

فالمجد الآتي وخضوع كل شيء للآب موضوع رجاء عند الانسان الجديد. وإن هذا الرجاء ثابت فيه لأنه له «باكورة الروح» (روم ٨ / ٢٣)، «عربون الروح» (٢ قور ٥ / ٥). فلا يراود أيُّ شك الانسانَ الجديدَ، لأنه نال الروح، وبالتالي الخلاص. لذلك يجمع بولس هاتين الحقيقتين — الرجاء فعدم الاتمام من جهة، العربون والاتمام من جهة أخرى — ويقول: «فلنا الخلاص، ولكن في الرجاء» (روم ٨ / ٢٤). الانسان الجديد يحيا هذه الحقيقة الواحدة المزدوجة: خلاصه قد تم / لم يتمّ بعد، قد تحقّق / لم يتحقّق بعد. فليست حقيقة الحياة الجديدة أن يكون الخلاص قد حدث، بل أن لا يزال يحدث في حياة الانسان الجديد، بل في الخليقة جمعاء. لذلك نجد عند بولس تعابير تَظهر في أول وهلة متناقضة، غير أنها متكاملة فعلاً بالمعنى الذي أوضحناه. فهو يقول بمعنى تحقيق الخلاص: «قمتم مع المسيح... حياتكم محتجبة مع المسيح في الله» (قول ٣ / ١ +). «الله أحيانا مع المسيح... فأقامنا معه وأجلسنا في السموات في المسيح يسوع» (اف ٢ / ٥ — ٦). ويقول بولس في شأن عدم تحقيق الخلاص بعد: «إذا كنّا قد متنا مع المسيح، فإننا نؤمن بأننا سنحيا معه» (روم ٦ / ٨).

فالقيامة تمت / لم تتم تماماً في حياة الانسان الجديد. الانسان الجديد يحيا من الآن القيامة (حياة المسيح)، بقوة الروح القدس، تمجيداً لله الآب، إلّا أنها ستكتمل اكتمالاً في الحياة الأبدية، في المجد الآتي حيث يصبح الآب «كل شيء في كل شيء». فحياة المسيحي، وحلول الروح القدس في حياته الجديدة، ليس هما إلّا عربوناً وباكورةً لحياته الآخرة.

الخاتمة

نستخلص من هذا الفصل ما استخلصناه في حديثنا عن المسيح، حيث رأينا أن حديث بولس عن المسيح ينتهي ويكتمل في الله الآب. ففكر بولس اللاهوتي فكر بنيته ثلاثية: المسيح — الروح — الآب. غير أن الآب يظل هو النهاية، نهاية كل الأشياء. كل شيء منه وكل شيء إليه يعود. الله الآب أرسَل ابنه كما أرسل روحه روح ابنه، وهما يقودان البشرية إلى الآب. الله الآب مصدر الانسان الجديد ونهايته. الله الآب مصدر الحياة الجديدة، حياة البنوّة، وهو نهايتها.

الخلاصة العامة

تحرّينا عن الفكر اللاهوتي البولسي. لم يكن هدفنا تحليلاً لفكره تحليلاً مستفيضاً شاملاً، بقدر ما كنّا نبغي أن نقدِّم لفكره اللاهوتي. فمذكّراتنا هذه ما هي إلّا «مدخل» إلى القديس بولس ورسائله وفكره اللاهوتي. وهذا المدخل مَحورناه حول ثلاثة محاور تشمل مجمل فكره: المسيح — الكنيسة — المسيحي.

ونريد في هذه الخلاصة أن نستخلص فكرة حاولنا ترسيخها على مرّ الفصول والتحاليل، وهي في الوقت نفسه تساؤل وجودي ملحّ: كيف نقول ان المسيح قد خلّص البشرية، محرِّراً ايَّاها من الخطيئة، ولا تزال قوى الشر تعمل فيها، بل تعمل بفاعلية وعنف لا مثيل لهما في مجتمع اليوم؟ كيف نتحدّث عن الحياة الجديدة، ولا تزال الحياة القديمة تلهم البشرية، بل الانسان الجديد نفسه؟ هل كلام بولس كلام نظري، خيالي، مجرَّد؟ هل هو رغبة، حلم، تمنّ؟ أم هو حقيقة وواقع؟ نودّ أن نلخّص ما أظهرناه في هذه المذكّرات في بضع حقائق متناسقة:

١ — المسيح خلَّصنا فعلاً فنلنا الحياة الجديدة. انه بموته / قيامته حرّرنا من الشريعة والخطيئة والقوى والموت، وبرّرنا وصالحنا مع الآب. انه غيّر وضعنا البشري حقاً، كياننا الانساني، أو — بتعبيرنا — خلّصنا أنطولوجياً، فعُدنا كما خلقنا الله «قديسين بلا عيب»، بحسب الرسالة إلى أفسس، أو «حَسَناً جداً» بحسب تعبير سفر التكوين. اننا «نلنا الخلاص حقاً، قمنا — مع — المسيح، وصعدنا — مع — المسيح عن يمين الآب، ونلنا الحياة الجديدة بالايمان به بالعماد.

٢ — لكن المسيح ترك للقوى شيئاً من الحرية، رغم أنه انتصر عليها. فالقوى مدركة تمام

الادراك أنها مغلوبة وقد قضي عليها. وان تأثيرها على البشر تأثير مؤقت زمنياً ومحدود فاعلياً. فلم يَعُدْ لها أي سلطان، ولكن بقي لها بعض التأثير. وينتهي عملها هذا عند المجيء الثاني المجيد للمسيح. حيث يُخضِع لنفسه كل هذه السلطات والقوى خضوعاً نهائياً لا مؤقتاً. مطلقاً لا محدوداً. وهذا ما تحياه الآن البشرية من وضع بشري جديد بفعل انتصار المسيح بموته / قيامته. ومن وجود بشري مزيج من الحياة الجديدة / الحياة القديمة. من الحياة بحسب الروح / الحياة بحسب الجسد. من الحرية / العبودية. وقد سمّينا هذا المستوى من حياة الانسان الصعيد الوجودي. ان الصعيد الأنطولوجي واحد (الحياة الجديدة. الحياة بحسب الروح. الحرية). أمّا الصعيد الوجودي فمزدوج ومزيج من الخير والشر. وعنصر الشر آتٍ من عمل — القوى التي لا تزال تعمل عملها. لذلك ميّزنا بين الخلاص الذي تمّ وتحقّق / لم يتم ولم يتحقّق بعدُ تماماً. أو ما زال يتحقّق. لأن القوى لا تزال تعمل. واستكمال تحقيق الخلاص موضع رجاء الانسان الجديد.

٣ — وللانسان دور واشتراك في الخلاص. إذ ليس الخلاص والحياة الجديدة والبنوّة عملاً سحرياً يقوم به الله. بل الانسان الجديد يشترك فيه. لله المبادرة. والمبادرة المطلقة. إلّا أن للانسان دوراً مع الله. ان الانسان الجديد طرف في الخلاص. في الانتقال من عبودية الخطيئة إلى حرية أبناء الله. من الحياة بحسب الجسد إلى الحياة بحسب الروح. من الاعتماد على النفس والأعمال إلى الايمان بيسوع المسيح. فإن كان الخلاص الذي حقّقه يسوع المسيح بموته / قيامته لا يظهر ظهوراً مطلقاً. فليس السبب ان المسيح لم ينجح فيه تماماً. بل لأنه أراد أن يشترك الانسان فيه. سواء أكان على المستوى الفردي — الانتقال من الحياة القديمة إلى الحياة الجديدة — أو الجماعي الكنسي — في مثل قول بولس انه يتمّم في حياته ما ينقص من آلام المسيح لأجل جسده. فكما احترم الله حرية الانسان يوم خلقَه ومنحَه حرية اختيار الشر. كذلك جعله يختار الخلاص ويشترك فيه اشتراكاً كاملاً. فالله يعرض ولا يفرض خلاصه على البشر. لذلك ثمة بشر كثيرون يرفضون الخلاص ويسوعَ المسيح. وثمة بشر كثيرون نالوا الخلاص والحياة الجديدة والبنوّة. لكنهم فقدوها أو يفقدونها في حياتهم الخلقية العملية.

٤ — ولا يترك الله الانسان الجديد وحده ليحقّق وجودياً وضعه الأنطولوجي الجديد. ولكنه يهب له وسائل كثيرة للمحافظة على الحياة الجديدة، بل لتنميتها. فالافخارستيا، وهي ارتباط وثيق بيسوع المسيح، اعلان لموته / قيامته، تمثّل به — تنمّي حياة العماد، تقوّي وتساعد الحياة الجديدة. وكذلك فالروح القدس هو الذي يحافظ عليها وينمّيها ويجعلها تثمر ثماراً تمجّد الآب، إذ ان الروح يتناول الخلاص والبنوة. فالآب لم يرسل ابنه ليخلّص العالم فحسب، ولم يرسل روحه إلى العالم فحسب، تاركاً الانسان الجديد وحده بعد ذلك، ولكنه يستمر في ارسالها ويجعلها يعملان باستمرار في الانسان الجديد. بل في الخليقة جمعاء.

٥ — الكنيسة — جسد المسيح وعروسه — موضع الخلاص والبنوّة من جهة، وعمل القوى من جهة أخرى. هي موضع الحياة الجديدة عندما تعمّد الانسان، وهي موضع نموّه في الأفخارستيا كما في مواهب الروح القدس. فليست الحياة الجديدة حياة انفرادية، بل هي كنسية، جماعية. انها حياة جسد يسوع المسيح القائم الحي. انها حياة هيكل الروح القدس، انها حياة الأبناء مجتمعين في وحدة ومحبة. والكنيسة باكورة كل ذلك، فما فعله الله فيها عربون لما يفعله وسيفعله في البشرية كلّها.

٦ — كل ما سبق يختص بتاريخ البشرية، بالوجود البشري، بل بتاريخ الكون كله ووجوده. وأما عندما يأتي المسيح في مجيئه الثاني، فإنه يهدم القوى نهائياً، ويُخضِع لنفسه كل السلطات، ويعيد الوجود البشري إلى وضعه الأنطولوجي الجديد، فيصبح المسيح «كل شيء في كل شيء» محقّقاً هكذا قصد الله منذ الأزل في أن يجمع المسيح ويدمج ويملأ في شخصه كل شيء، كل الخليقة، ما في السموات وفي الأرض وفي الجحيم. فحينذاك يَخضَع المسيح نفسه للآب الذي يصير «كل شيء في كل شيء».

هذه هي أهم ملامح فكر بولس اللاهوتي كما تحرَّينا عنها في رسائله.

محتويات الكتاب

الصفحة

المقدّمة الأولى : بولس : حياته — رسالته — شخصيته ٨
المقدّمة الثانية : رسائل بولس ١٤
القسم الأول : المسيح في رسائل بولس ١٨
الفصل الأول : المجيء الثاني ليسوع المسيح ٢١
الفصل الثاني : قيامة يسوع المسيح ٢٦
الفصل الثالث : موت يسوع المسيح ٣٦
الفصل الرابع : سر المسيح ٥٢
القسم الثاني : الكنيسة في رسائل بولس ٥٧
الفصل الخامس : الكنيسة جسد المسيح ٥٩
الفصل السادس : الكنيسة والروح القدس ٧٠
القسم الثالث : المسيحي في رسائل بولس ٧٨
الفصل السابع : المسيحي والمسيح ٨٠
الفصل الثامن : المسيحي والروح القدس ٨٣
الفصل التاسع : المسيحي والآب ٩٢
الخلاصة العامة ٩٦

أنجزت مؤسَّسة دكَّاش للطباعة

طباعة هذا الكتاب

في الخامس عشر من آذار ٢٠٠٣

٩٦٩-٥,٠-١٥/٣/٢٠٠٣

